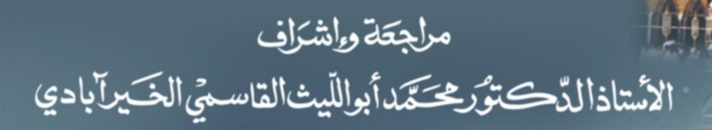
العلوم والإسلام

فضيلة الشيخ حكيم الإسلام الشيخ مولانا محمد طيب رحمة الله عليه

المدير الأسبق
للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند



مراجعة وإشراف
الأستاذ الدكتور محمد أبو الليث القاسمي الخيرآبادي

تعريب
نظيف أحمد القاسمي الأزهري

قام بنشره
مجمع حجة الإسلام
الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند الهند

العلوم والإسلام

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ-٢٠١٤م

العلوم والإسلام

فضيلةالشيخ حكيم الإسلام الشيخ المقرئ مولانا محمدطيب
– طيَّب الله ثراه–
المديرالأسبق للجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند

الرقم الدولي: ٦-٦-٩٢٩٤٤١-٨١-٩٧٨ ISBN

مجمع حجة الإسلام

الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند، الهند

www.dud.edu.in

www.darululoomwaqf.com



العلوم والإسلام

فضيلة الشيخ حكيم الإسلام الشيخ المقرئ مولانا محمد طيب

– طيّب الله ثراه–

المدير الأسبق للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند

مراجعة وإشراف

الأستاذ الدكتور محمد أبو الليث القاسمي الخيرآبادي

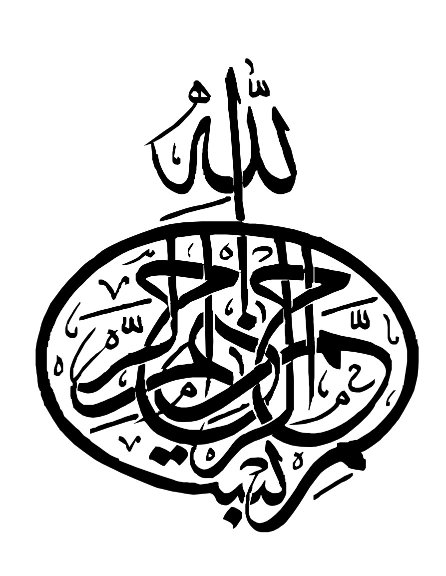
بروفسور الحديث في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

تعريب

نظيف أحمد القاسمي الأزهري

مَجمَع حجة الإسلام

الجامعة الإسلامية دار العُلوم وَقف، ديوبند، الهند


بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ

فضيلة الشيخ العلامة محمد سالم القاسمي حفظه الله

رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم وقف ديوبند، الهند

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن حكيم الإسلام المقرئ "**محمد طيب**" هو العالم الجليل الذي أعطاه الله أسلوباً خاصاً، ولساناً طيباً لإظهار علومه وكمالاته كما يترشح ذلك في خطاباته ومؤلفاته.

كان حكيم الإسلام -رحمه الله- خطيباً بارعاً وواعظاً بليغاً، اعترف بمكانته الرفيعة في مجال الخطابة نوابغ الخطباء المعاصرين، وعلى رأسهم الخطيب الإسلامي الشهير "**عطاء الله شاه البخاري** -رحمه الله-" و "**مولانا أبوالكلام آزاد**" الخطيب البارز، والكاتب الأردي الكبير، وزير التعليمي الهندي الأول بعد الاستقلال.

وقد شهد التاريخ أنه كان يدهش المستمعين ويحير عقولهم بالخطابة الساحرة، والاطلاعات الدقيقة، والمحفوظات الوفيرة، والمعلومات الغريبة، والقصص والأمثال الطريفة، واللسان العذب، والأساليب الرائعة، والاستشهاد العلمي بالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، والنكت العلمية، والأسرار العرفانية عند ما كان يصعد منصة الخطابة.

ومن أهم مزايا خطاباته أنه أشبع الكلام في المواضيع التي تناولها، ووفاها حقها من الشرح والبسط، والدلائل العقلية والنقلية، والرد على الشبهات الضالة، وحل المشكلات والمسائل المختلفة بأسلوب سهل رائع.

ولذا كان المستمعون يتفاودون إليه هارعين ومتسارعين، لم يمل على أحد سماعه على رغم أنه كان يطول الحديث عامة ويكثر في الكلام. هذه هي الميزات والخصائص التي تفوق بها "**حكيم الإسلام**" على كبار خطباء عصره.

وهذا الكتاب في الحقيقة محاضرة ألقاها الشيخ "**حكيم الإسلام**"- رحمه الله- في "**جامعة علي كراه الإسلامية بالهند**" أمام أساتذها وطلابها عام (١٩٣٨م) ثم طبعت هذه الخطبة العلمية، وحظيت بالإعجاب والقبول بين أهل العلم.

وإنه يطيب لي أن أبلغكم سعادتي بأن حفيدي العزيز "**محمد شكيب القاسمي**" مدير مجمع حجة الإسلام والأستاذ بالجامعة الإسلامية درالعلوم وقف ديوبند ومدير مجلة "**وحدة الأمة**" العربية المحكمة الصادرة من المجمع، يقوم بنشر ترجمة هذا الكتاب باللغة العربية وهو يسعى لإحياء تراث السلف بنقله إلى اللغات الأخرى كما يبذل جهوده لتحقيق أهداف المجمع الهامة الأخرى أيضاً. فجزاه الله خير الجزاء، ووفقه بما يحبه ويرضاه.

محمد سالم القاسمي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد! فهذه ترجمة عربية لمحاضرة ألقاها باللغة الأردية سماحة الشيخ حكيم الإسلام المقرئمولانا محمد طيب – طيَّب الله ثراه– المدير الأسبق للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند في جامعة علي كراه الإسلامية بالهند أمام أساتذتها وطلابها، في يوم الأحد ٨/ جمادى الثانية ١٣٥٧هـ الموافق ١٧/ أغسطس ١٩٣٨م، بعنوان "سائنس اور اسلام".

لقد رأت أكاديمية حجة الإسلام التابعة للجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند أن تترجمها فكلَّفتنا بذلك؛ لأن ترجمة هذه المحاضرة إلى لغات العالم، خاصة اللغة العربية والإنجليزية،

حاجة الساعة التي يجري الإنسان فيها وراء المادة جريان الماء إلى المنحدرات؛ فإنسان اليوم في أمس الحاجة إلى أمثال هذه المحاضرة، التي وضح فيها الشيخ علاقة العلوم مع الدين أولا، ثم مع دين الفطرة "الإسلام" ثانيا، فوضح أن العلاقة بينهما هي علاقة الوسيلة مع المقصد، والتبع مع الأصل، فالعلوم وسيلة لخدمة الأصل وهو دين الإسلام، ولكن جريه وراء المادة الآن يدل دلالة صارخة على أن المادة أصبحت أصلا، والدين إما أصبح وسيلة أو لا شيء.

والشيخ محمد طيب القاسمي –طيب الله ثراه– من أبرز دعاة وعلماء أهل السنة والجماعة في عصره في الهند، ومن كبار علماء الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند التي هي أكبر وأقدم جامعة إسلامية أهلية في الهند، وله تأليفات كثيرة، كلها تتحدث عن حكم وأسرار تعليمات الإسلام، ولذلك لُقِّب بحكيم الإسلام. وكان قد تولى منصب مدير الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند من سنة ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م إلى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٢م، وكان مديرا موفقا بمعنى الكلمة، فقد زاد من قدر الجامعة وشعبيتها على الصعيدين المحلي والعالمي، ففي عهده المبارك برزت الجامعة أكبر جامعة إسلامية أهلية على وجه الأرض، وشهدت تطوراتٍ علميةً وإنجازاتٍ تعميرية هائلةً، وكان الشيخ خطيبا بارعا، ذلق

اللسان، قوي العارضة، شديد البرهان، كان يتحدث باستمرار ساعات طويلة كسحابة ممطرة، لا تمل ولا تنقطع، حتى قيل: "ما أنجبت شبه القارة الهندية في آخر العصور أخطب وأفصح من الشيخ محمد طيب القاسمي"[١].

ومن المعلوم لدى من له إلمام بالترجمة، أن ترجمة كتاب من لغة إلى لغة أخرى لا يمكن أن تسع كل ما تحويه لغة الكتاب الأصلية من ألفاظ وكلمات، وتعبيرات وتمثيلات، وتشبيهات آخذة بالقلوب، وإيحاءات مؤثرة، ونبرات مدغدغة، ونغمات ساحرة، ومدَّات وجزرات، وإيقاعات وانفعالات، فلهذا كله نحن لاحظنا في ترجمة هذه المحاضرة الأمور التالية:

١- أن لا تكون الترجمة العربية ترجمة حرفية، ولا تكون ترجمانية خالصة أيضا، بل قصدنا أن نشم في هذه الترجمة الرائحتين: رائحة الترجمة الحرفية ورائحة الترجمانية، بحيث ننقل عَبْرَها فكرَ الشيخ،وأدبه، وثقافة لغته، وأسلوبه، محافظا على إبداعه وحسه اللغوي بقدر الإمكان.

٢- ذكرنا مواضع الآيات في القرآن الكريم، وقمنا بتخريج الأحاديث الواردة في المحاضرة، أو المشار إليها فيها، مع الحكم

[١] انظر: محمد سفيان القاسمي،**لمحة موجزة عن حياة الشيخ محمد سالم القاسمي**، (ديوبند: مجمع حجة الإسلام، بالجامعة الإسلامية دار العلوم وقف)، ص٩-١٠.

عليها. وكذلك وثقنا بعض الحقائق التي جاء ذكرها في كلام الشيخ.

ولذلك نرجو من قرَّاء هذه الترجمة من الإخوة العرب عامة، والإخوة الهنود خاصة أن ينبهونا على ما إذا حصل في الترجمة من خطأ أو تشويش أو عدم وضوح أو عدم أداء للمفهوم، لنتداركه في النشرة الثانية إن شاء الله.

الأستاذ الدكتور/ محمد أبو الليث الخيرآبادي

بروفسور الحديث في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

٢٤/ جمادى الثانية ١٤٣٥هـ

الموافق

٢٣/ أبريل ٢٠١٤م

فهرس كتاب "العلوم والإسلام"



ترجمة كتاب: "سائنس اور إسلام"

العلوم والإسلام

محاضرة ألقاها فضيلة الشيخ حكيم الإسلام المقرئ مولانا محمد طيب – طيَّب الله ثراه – المدير الأسبق لجامعة دارالعلوم ديوبند في جامعة علي كراه الإسلامية بالهند أمام أساتذها وطلابها في يوم الأحد ٨/ جمادى الثانية ١٣٥٧هـ الموافق ١٧/ أغسطس ١٩٣٨م

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا وسندنا ومولانا محمدا عبده ورسوله، أرسله الله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه سراجا منيرا، وصلى الله تعالى

عليه وعلى آله وأصحابه، وبارك وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد! فقد قال النبي ﷺ: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فقال: بها عليها، فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، فقالوا: يا رب! هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالوا: يا رب! فهل من خلقك أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. فقالوا: يا رب! فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالوا: يا رب! فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالوا: يا رب! فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم، تصدَّق بصدقةٍ بيمينه يخفيها من شماله» رواه الترمذي[٢].

السيد رئيس الجلسة! وأكابر الملة! والطلبة الأعزاء! إن الموضوع الذي طلب مني المحاضرة عليه هو "العلوم والإسلام"، وإني متعجب من أنه طُلِبَ مِنِّي قليلِ البضاعة في العلم، إلقاءُ هذه المحاضرة أمام المتخصصين في الفنون العصرية، والحذاق في العلوم المختلفة، كما أني متعجب أكثر من أن هذا الموضوع من أهم وأدق وأصعب الموضوعات واختير للكلام عليه اسمي أنا القليلُ العلمِ.

[٢] رواه الترمذي في **سننه**، ج٥، ص٤٥٤، رقم٣٣٦٩ وفيه: "فخلق الجبال، فعاد بها عليها؛ فاستقرت". وفي تحفة الأحوذي كما كتب الشيخ.

موضوع "العلوم والإسلام" في الحقيقة موضوع مهم جدا، يحتاج الكلام عنه إلى علم وفير، وأهلية عالية لدى المتكلم عنه، والعلم القليل والأهلية الناقصة لا يسمن ولا يغني من جوع.

ومع أن هذا الموضوع أسهل مبنًى، هو أوسع وأدق معنًى؛ لأنه مشتمل على ثلاثة أمور: الإسلام، والعلوم، والتركيب العطفي بينهما، ولأجل ذلك يجب تلقائيًّا على من يتحدث عن هذا الموضوع أن يُوَضِّح مفهوم هذه الثلاثة: مفهوم العلوم وحقيقتها، ومفهوم الإسلام وحقيقته، والنسبة بين المعطوف عليه والمعطوف "العلوم والإسلام"، ثم يَظْهر الأمر الرابع أوتوماتيكيا، وهو من مقتضيات هذه الأمور الثلاثة أيضا، يعني إذا وُضِّحت النسبة بين العلوم والإسلام فقط، دون إبراز درس وموعظة فيه، فهذا يمثل إثباتا لواقعة فقط، والواقعة من حيث إنها واقعة لا تتعدى حقيقةَ قصةٍ من القصص، لذلك فيكون المقصد الرابع هو: ماذا تقتضي منا هذه الأمور الثلاثة، وماذا تريد؟.

لذا تنشأ من موضوع المحاضرة ثلاثة مقاصد، مؤسسٌ عليها هذا الموضوع، وهي: حقيقة العلوم والإسلام، وحقيقة النسبة والارتباط بينهما، والموعظة الناشئة منهما.

لا شك أن هذه الأمور الثلاثة مهمة جدا، ومع ذلك هي صعبةٌ جداً عليَّ لقلة علمي به كما قلت. فإن كان استيفاء

الكلام عن الإسلام ومقاصده أصعب لقلة بضاعتي في العلم، إلا ما سيَبْدر من فمي عن مقاصد الشريعة الإسلامية في هذه المحاضرة بفضل مجالستي مع كبار علماء دار العلوم ديوبند كما يقال: "هم القوم لا يشقى جليسهم"، فإن موضوع "العلوم" جديد لي تماما، لا أعرف عن أصولها، ولا عن فروعها شيئًا، ولا عن مبادئها ومقاصدها فنِّيًّا، ومن المعلوم جيداً أن العلمَ بطرف من الموضوع، والجهلَ عن الطرف الآخر منه، يمنع الوصول إلى معرفة العلاقة بينهما.

ولكن لما أمرني به من أحترمهم احتراما كبيرا، أعتقد أنه أمرٌ من الله تعالى أيضا، لذلك تحمستُ أن أتحدث عن هذا الموضوع على قدر معرفتي، متوقعا المدد والعون من الله تعالى، وأرجو منكم العفو والمسامحة عما يحصل مني من أخطاء وأغلاط.

إخوة الإيمان! إن حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي قرأته أمامكم يحتوي على الأجزاء الثلاثة للموضوع احتواءاً كاملاً، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم وضَّح فيه –حسب علمي وفهمي– أولاً حقيقة العلوم بحيث قدَّم لبَّها وروحَها، وبعد ذلك بيَّن فيه حقيقة الإسلام بيانا كافيا، ثم وضَّح الربط بينهما بحيث انكشف لنا ما هو المقصود؟ وما هي الوسيلة؟ وما هي طريقة الوصول بهذه الوسيلة إلى ذلك المقصود؟ وبعد

الحصول على المقصود كيف نطلع على الثمرات التي تترتب عليه، والتي نسعى للحصول عليها.

وقبل أن نكشف الستار عما يحويه الحديث الشريف من حقائق، يناسب لنا أن نحدد موضوع العلوم، حتى يمكن لنا التعرف على حقيقته بطريقة منضبطة. ولكني أود أن أقول: إن تحديد موضوع "العلوم" من حيث الفن أنا لا أستطيع ذلك لأني ما تعلَّمتُ هذا الفن بالانتظام، وإنما أكتفي بذكر موضوع "العلوم" بواسطة آثارها المشتهرة على ألسنة الناس، وبواسطة الجهد الذهني مني، آملا أني إذا أخطأت فيه فلا يتركني أساتذة هذا الفن في هذه الجامعة ومتخصصوها فيها أن أَبْقَى على الخطأ.

موضوع العلوم

سادة الحضور! عندما يُذكَر في هذا العصر الراقي المتقدم عن الإبداعات الحضارية والانكشافات الحديثة المتطورة للمادية، فيأتي ذكر "العلوم" تكملةً لها، فمثلاً عندما يقال بأن العصر الراهن جنَّن الدنيا وأهلها بتطوراته الإعجازية، ففي باب وسائل الاتصال والإعلام حيَّر الدنيا التليفونُ والتليغرافُ وغيرهما، وكذلك أدهشها الراديو والنظام اللاسلكي وغيرهما من الآلات

الكهربائية، فيذكر مع هذا كله "العلوم" تكملةً بأن هذا كله من الآثار الذهبية للعلوم.

وفي باب وسائل النقل الحديثة عندما يأتي ذكر القطارات والحافلات والسيارات والطائرات والمراكب الأسرع من الريح، فيأتي حينئذ ذكر "العلوم" بأن هذا كله من أفضال العلوم.

وفي باب الصنائع والحرَفِ عندما تظهر على منصة الشهود أمتعةٌ خلاَّبةٌ وغريبةٌ مصنوعةٌ من الحديد والخشب، ونماذجُ وأساليبُ جديدةٌ للبناء والتعمير، وتراكيبُ وأشكالٌ حديثةٌ لعمل الإسمنت، واختراعاتٌ بديعةٌ للهندسة، فيذكر مع هذا كله الوجهُ الخلاب للعلوم، ويقال بأن هذا كله من عملها.

وكذلك في باب النباتات عندما يُذكَر التقدم الزراعي، والطرق الجديدة لاستكثار الخضراوات والفواكه والأزهار، والآثار والخواص الجديدة للنباتات، فتذكر هنا العلوم أيضا بكل احترام وتقدير.

وكذلك عندما تُذكَر الوسائلُ المتطورة لإيصال التأثيرات المختلفة في النفوس الحيوانية، والصورُ الغريبةُ والأسرعُ للعمليات الجراحية، والتقدمُ المحيِّرُ لصناعة الأدوية على الطريقة الكيماوية، وتدابيرُ التحليل والتركيب المحيرة للعقول، وصورُ العلاج بالكهرباء، فتذكر هنا بكل تقديرٍ العلومُ أيضا بأن هذا كله من

آثارها المشرقة والوضّاءة.

ففي ضوء ما سبق توصلتُ بعقلي الناقص إلى أن موضوع "العلوم" لم يخرج عن دائرة عمل المواليد الثلاثة التي هي: الجمادات والنباتات والحيوانات.

ثم لما كانت كلٌّ هذه المواليد الثلاثة مركبةً من العناصر الأربعة: ١) النار ٢) والماء ٣) والهواء ٤) والطين (وهذه حقيقةٌ مسلمٌ بها، ولا يُحْتَاج لإثباتها إلى إقامة الحجة والدليل)، لذلك أصبح **موضوعُ "العلوم" هذه العناصرَ الأربعةَ**، ومن ثَمَّ أصبحت دائرةُ عملِ "العلوم" هي فهمُ خواص تلك العناصر الأربعة وآثارها عملاً، وإيجادُ الأشياء الجديدة في ضوء تجربات تحليلاتها وتركيباتها عبر الطرق الكيماوية، فثبت من هذا كله أن هذه الصور والأشكال المختلفة للعلوم قائمة على أعمدة هذه العناصر الأربعة.

وإذا اختصرنا هذه الحقيقة التفصيلية فنقول: إن موضوع العلوم هو البحث في المادة وعوارضها الذاتية، فالإنسان الذي جعل نفسَه منهمكًا أكثرَ في الماديات، واستخدم خواصَّها وآثارَها، هو الذي استحق أن يُعدَّ كبيرَ علماءِ العلوم، وماهرًا فيها.

التفاوت بين قوى العناصر ومعياره

إذا تأملنا قليلاً في هذه العناصر الأربعة فنشعر بأن خواصها وآثارها وعوارضها الذاتية ليست متساويةً فيما بينها، بل هي متفاوتة إلى حد كبير، وليست العوارض والخواص فقط متفاوتة، بل القوى الجوهرية لهذه العناصر أيضاً لم تسلم من التفاوت، فمنها عنصر ضعيف، وعنصر قوي، وعنصر أقوى، ثم هذا التفاوت في القوة والضعف ليس مصادفةً وعشوائيا، بل هو مبني على معيار، وهو أن ما ازداد لطافةً ازداد قوةً، ومن ثَمَّ وُجِدَتْ فيه الغلبة والتسلط والقدرة على قدر القوة، وما ازداد كثافةً ازداد ضعفاً، ومن ثم ظهر فيه العجز والمغلوبية والذلة والمهانة بقدر الضعف.

ويبدو أن سرَّ ذلك هو أن اللطافة صفة الكمال، ومخزنُ كلِّ كمالٍ وجوديٍّ هو ذات واجب الوجود المباركة، ومن ثَمَّ هو منبع اللطافات كلها أيضاً. وبناءاً على هذه القاعدة فهو منبع القوى والطاقات بسبب اللطافة، والشاهد على أنه في منتهى اللطافة أنه أسمى وأرفع من حدود الحواس والخيال الغائبين عن

الأعين، وهو ما وارء حدود الإدراك والانكشاف، ومن مظاهر قوته وطاقته أنه أقام حكومته على جميع العوالم بنظام محكم، فكلٌّ مًّا فيه مَعْلَمٌ من معالم اللطافة لا شك أنه ظِلٌّ لذات الله وصفاته، وقَبِلَ ذلك الشيءُ أثرَه قدرَ المستطاع، ومن الثابت أن قبول الأثر لا يكون بدون مناسبة بين المؤثِّر والمتأثر، لذا لا يكون بعيدا عن الصواب أن يقال: إن كل شيء لطيف له مناسبة مع الله تبارك وتعالى بقدر لطافته، ومن الظاهر أن من يكون له قرب ومناسبة مع ذات الله المباركة يكون قويا وغالبا وقادرا بقدر قربه منه ومناسبته معه. وأما الكثافات والأشياء المكثفة فهي غريبة وبعيدة عنه تعالى غاية البعد؛ إذ لا وجود للكثافة هناك، فلذا كلٌّ ما يبتعد بكثافته عن ذات اللطيف الخبير، يكون مغلوبا وضعيفا وذليلا على قدره، وتنعدم فيه القوة والاستيلاء والغلبة.

هذا تماما مثل ذلك الشيء الذي إذا قرب من الماء فتسري فيه آثار برودته ورقته، وإذا قرب من النار فتترسخ فيه الحرارة والخشونة وغيرهما من آثار النار، وإذا قرب من الطين فتتجذَّر فيه آثار اليبوسة والجفاف.

وهكذا الشيء الذي يُنشئ القربَ من الله تبارك وتعالى

والمناسبة معه بواسطة وصف من الأوصاف، هو يصبح على قدره مركَزًا ومحورا للشؤون الربانية وصفاتِ الكمال حسب مستطاعه، ومن لوازم هذا القرب أن يظهر فيه الاستيلاء والاستغناء والقوة والغلبة ورفع المنزلة.

وإن كان هناك فرق فهو أن القرب في الحسيات يكون حسّيًّا، وآثار القرب أيضاً تظهر محسوسةً، ولكن الحسَّ عاجز عن الوصول إلى الله تبارك وتعالى، لذلك يكون قربه وصفيا أيضا بدلا من أن يكون حسيا، فالشيء الذي ينال قربَه بالأخلاق والأوصاف ينال نصيبه من الكمال على قدره حسب استعداده، ومن ثَمَّ يأتي فيه الغلبة والتسلط والاستغناء والاستيلاء على حسب قدره.

عنصر الطين

عند ما نعرض العناصر الأربعة على المعيار السابق، فنجد الطين أكثر العناصر كثافة؛ لأن معدنَه الأرضُ، وهذا الطين ليس كثيفا فحسب، وإنما هو مكثِّفٌ للغير أيضا، فثبت منه أن أيَّ شيء تحصل فيه الكثافة والغلاظة يكون سببه الطين لا غير؛ فإن النار لم تُوسِّخ –حتى يومنا هذا– شيئاً و لم تُغَلِّظُه، وأما صيرورة

الشيء غليظا بعد طبخه على النار فهذا شيء آخر؛ لأن الغلظة لم تأت فيه من النار قطعاً، بل النار سحبت الجوهر اللطيف من المطبوخ بها، وبقيت فيه مادته الغليظة، ويُرَى ذلك الشيء المطبوخ كثيفا، فالنار لم تزد في المطبوخ بها شيئا، بل أخرجت منه شيئا، فالغلاظة لم تأت إليه منتقلةً من النار، بل برزت في ذات المطبوخ بسبب سحب النار الجوهر اللطيف منه.

وكذلك الماء لا يكدِّر شيئا ولا يغلِّظه، بل تُزَال به الغلاظة والكدورة؛ لأن أصلها طاهر ونظيف.

كذلك الهواء أيضاً لا يكدِّر شيئاً ولا يوسِّخه، إلا أن تختلط بالهواء الأجزاءُ الأرضيةُ بشكل غير محسوس، فيكدر ذلك الهواءُ المختلطُ بالأجزاء الأرضية شيئاً يمر به، فهذه الكدورة والوساخة جاءت فيه بسبب الطين لا بسبب الهواء، فمصدر الكثافة هو الطين والغبار الذي لا مناسبة بينه وبين اللطافة بشيء، لذلك لا مكانة له في عامة العناصر.

فانظروا إلى الكرة الأرضية طولها وعرضها، فلا ترون غيرَ دوسها بالأرجل وذلتها ومسكنتها، حيث إنها تداس ليلَ نهارَ، ولكنها بسبب ذلتها وحقارتها لا تتأوه ولا تتألم؛ إذ لا حِسَّ فيها، ولا إدراك، ولا قدرة لها ولا غلبة، بل العناصر الأخرى

كلها غالبة عليها، كأن أقدامها على رأسها، وهذه ألعوبة لكل عنصر.

فيطيرها الهواء، ويسيل بها الماء، وتحرقها النار، وهي لا تملك قوةً تدافع عن نفسها، ولا طاقة تمنعها من كل ذلك؛ إذ لا توجد فيها وإنما سَلَبَتْها الكثافةُ المطلقةُ، فمن أين تأتيها القوة؟ وما أفقد لطافة! وما أعدمها! أن مادتها كثيفة، وصورتها كثيفة، وأنت مهما تصقلها وتلمعها يبقى سطحها خشنا، لا يقبل اللمعَ ولا الصقلَ. وهي مع كونها كثيفة المادة والصورة هي كثيقة الطبع أيضا؛ لأن مدرا طينيا إذا رُمِيَ به إلى الأعلى بكامل القوة والطاقة فيعلو بقدر أثر قوة الرامي العرضية فيه، وعندما تنتهي قوة الرامي تعود إليه حالته الأصلية وطبيعته الأرضية فيرجع إلى الأسفل.

خلاصة الأمر أن اللطافة غائبة تماما عن مادة الأرض وصورتها، فهي بعيدة عن الله بعدا مطلقا في هذا الوصف، فتحتَّمَ أن يأتي في نصيبها الضعف المطلق والذلة المطلقة، لذلك وصف الله تعالى الأرض بالذلول (الذي هو مبالغة الذليل) في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥].

نعم! هناك جزء من الأرض يقال له "الجبال"، التي ترابُها (أي رملها) قَبِلَ قليلا من اللطافة، فأبعد نفسَه عن الكدورة

والكثافة نوعًا مًّا، ففاق الطينَ بقدر بُعْده عن الكثافة، لذلك إذا نُفِضَ الرملُ الجافُّ ينتشر يمينا ويسارا، وإذا وضع عليه الماء لا يصير وحلا، وإذا رأينا ذراته وجدناها لامعةً، وإذا نظرنا إليها خدعتنا أكثر من الطين، وحتى تشتبه الرمال على الناظر أحياناً فيظنُّ أنها ماء وبحر لنقائها وصفائها ولمعانها، (وهذا الذي يقال له: سراب).

الحاصل أن الرمل بقدر وجود اللطافة فيه أصبح أعز من الغبار، وازدادت قيمته ومكانته، ثم إذا بني الحجرُ بالرمل، والجبلُ بالأحجارِ، فتزداد عظمة شأنهما ومكانتهما أكثر بكثير من سطح الأرض، وتقاس قوة الأحجار بأن حجرا واحدا يستطيع أن يكسر مدرا كبيرا من الطين، بل يكسر الآجُرَّ المصنوع من التراب، بينما لا تستطيع كتلٌ كبيراتٌ من التراب أن تنال من الأحجار شيئا.

إذا وقعت صخرة من الجبل على الأرض ترتج الأرض وتهتز، ويحصل فيها صدعٌ وشقٌّ، وتحصل فيها حفرة عميقة، وعلى عكس ذلك إذا وقعت الأكوام من التراب على صخرة لا تستطيع أن تميد بها من مكانها، فضلا عن كسرها، فلا تتحرك من مكانها، ولا يحصل فيها غار. ثم هذه الأحجار كلما تزداد نقاءا وصفاءا وجلاءا تزداد قيمةً وطاقةً معنويةً، فحجر الصوَّان

أثمن من الأحجار العادية، وحجر الرخام أثمن من الصوَّان، والجواهر واليواقيت أثمن من الرخام، والألماس أثمن من الكل، والفرق بينها هو قلة وكثرة اللطافة والكثافة والغلاظة والنقاء. سطح الأرض كثيف بحيث إنك مهما تصقله وتُمَلِّسه لا تحس يدُك فيه بملاسة كاملة أبدا، وأما الأحجار فبسبب وجود المادة اللطيفة فيها يمكن أنها إذا صُقِّلت تُصبح ملساءَ مثل الزبدة، ثم البعض منها يتلمَّع، والبعض الآخر تَظْهر فيه الصورةُ خلابةً رائعةً، فتبين أن الأحجار جاءت فيها الشدة والقوة على حسب قبولها من النقاء والصفاء. وتبين أيضا أن الجبال ومادتها ألطف من الأرض وغبارها، لذلك أنها أكثر -بكثير- صلابةً وشدةً وقوَّةً من الأرض، فنتج عنه أن سبب الشدة والقوة هو اللطافة والنقاء، لا غير.

ولكن هذه الجبال وأحجارها القوية التي كانت أشد من الأرض، التي ما كانت تستطيع أن تتحرك أمام الجبال والأحجار، وإنما تبقى ساكتة عاجزة، إذا جاءت المقابلة بين الصخور الجبلية الكبار والحديد فتذهب كل هذه الشدة والصلابة للجبال هباءا منثورا، فمعولٌ حديديٌّ صغيرٌ يقضي عليها تماما في دقائق، والأحجار الثقيلة لا تأخذ وقتا كثيرا في تحولها بهذا المعول الصغير ذراتٍ صغارا، والأحجار الصغيرة على

طرفي السكة الحديدية للقطار هي قطع من تلك الصخور الجبلية القوية الشامخة، استعملت خادمةً للتراب وخطَّي السكة الحديدية بتثقيلها وإلقاء الوزن عليها، وهكذا أمام الحديد سقطت قيمة هذه الجبال وأحجارها القوية من الأرفع إلى الأسفل، وتقع عليها المعاول الحديدية كما تقع الأسياط الجلدية والعصا البولسية على رأس السجين المقيد، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئا.

فاتضح من البيان السابق أن الحديد أشد وأقوى من الأحجار، لماذا؟ سرُّه هو اللطافة؛ لأن الحديد قَبِلَ من اللطافة والصفاء أكثر من الأحجار، ولا توجد فيه كثافة الرمل، فضلا عن كثافة التراب، لا تَطِير ذراتُ الحديد فتوسِّخَ الأشياء، وإذا وقع الرمل في الماء فيكدره نوعا ما بكونه من أصل التراب، ولكن الحديد إذا جُعِلَ ذراتٍ صغارًا، ثم وضعت في الماء، فلا يحصل أي فرق في جلائه ورقته وسيلانه أي يبقى جليا رقيقا سائلا كما كان من قبل. وكذلك إذا صُقِّل الحديد يتلمع مثل الفضة، بل إذا صقل أكثر فيصبح مرآة يرى فيها عكس ما هو أدق وأرق، بينما الأحجار لا يوجد فيها تلك الصلاحية لقبول التلميع والتصقيل.

فاتضح أن الحجر أخزى وأذل من الحديد بهذه اللطافة، فأعظم الجبال -على رغم عظمته وهيبته- لا يستطيع أن يخفي

عجزه أمام صغار الحديد.

عنصر النار

ولكن هذا الحديد الأقوى الذي اعترفت الجبالات العظام الضخام بقدرة قطعات صغيرة منه إذا مسته النار، أو وضع في كير حداد، فجميع طاقاته وقدراته تذهب هباءا منثورا، فبمجرد مس النار إياه يتغير لونه وشكله، ويشحب وجهه وعارضته، فلا يستطيع أن يحافظ على طبيعته وخاصيته، وكيف لا، فقد تأتي النار عليه وتسري في كبده وتجعله من بنات جنسها، ثم إذا تُرِكَ الحديد في كير النار لوقت آخر قليل، وما أنقذ من لهب النار فتذيبه النار وتسيله مثل الماء، ولا تصمد أمامها شدتُه وصلابته، ولا يستطيع الآن أن يكسر أصغر قطعة من الحجر؛ مما دل على أن النار أشد وأقوى من الحديد.

لو تأملت قليلا لوصلت إلى أن سِرَّ ذلك هو ذلك الأصل العقلي والطبيعي، وهو أن اللطافة في النار أكثر منها في الحديد أيضا، والحديد أكثر كثافة من النار، وإذا كان الحديد — مع كونه كثيف المادة مثل الأحجار– لطيفا بقدر أنه كان يقبل الرقة والسيلان؛ فإن النار ليس لها جسم ذاتي صلبٌ لا يدخل

فيه شيء، بل كل شيء يستطيع أن يدخل في كبد النار، وكذلك النار تستطيع أن تدخل في كبد كل شيء، وهذه الصلاحية مفقودة في الحديد، ثم الحديد إذا تلمَّع في حين من الأحيان وقَبِلَ الأشعة النورانية من الخارج، فحال لطافة النار أن النور ينبعث من ذاتها هي لا من الخارج، وبلفظ آخر: الحديد يكسب النور من الآخر، بينما النار تتنور بنفسها وتستطيع أن تنوِّر الأشياء الأخرى المظلمة أيضا.

ثم الحديد المصقول اللطيف الذي نسميه "مرآة"، هي على رغم لطافتها تكون ثقيلة الجسم وكثيفة المادة، بحيث إننا إذا ضربنا عليها باليد فترتد إلينا اليد من جسمها الكثيف، بينما النار بسبب لطافتها العالية تنفذ اليد فيها، ولا يتكسر جسمها إطلاقا.

ثم الحديد المصقول (أي المرآة) لا يقبل إلّا عكس الشيء، بينما النار تقبل الجسم الأصلي للشيء لا عكسه، ومع ذلك لا يحصل في جسمها أي كسر وخرق، ولا تمنع النار من تداخل الأشياء الأخرى فيها؛ لذا هي أقوى وأشد من الحديد، بل دائرة أثرها أوسع من دائرة أثر الحديد وغيره من الأشياء الكثيفة على قدر توسع حدود لطافتها، فمثلا: الحجر والحديد لا يحيطان إلا بالموضع الذي وضعا فيه، ولا أثر لهما في غيره، وأما النار فتصل

آثارها من النور والحرارة إلى غير مكانها أيضا، بل وإن غاب مكان النار عن الأبصار والأعين فآثارها المنتشرة بعيداً تدل على وجودها، فبهذه الأسباب كلها النار أغلب على الحديد، وأقدر على قضائه وإفنائه.

عنصر الماء

ولكن النار الملتهبة هذه، وصولتها وجولتها تلك، تبقى على قيد الوجود إذا لم يكن الماء على مقربة منها، فإن قطرات عديدة منه لا تطفئ نورها فقط، ولا تطأطئ رأس تعلِّيها وتكبُّرها فقط، بل تقضي على بكرة أبيها تماما، ولا يتركها الماء لترفع رأسها مرة أخرى، بل الحطب الذي يريد أن يحفظ نفسَه من النار لقليل من الوقت فليغطِّ نفسَه برداء الماء، أو يصبح مبلَّلاً به، فهنا تقف النار عاجزة عن أن تنال من الحطب المبلل شيئا.

على كل حال، فالموضع الذي يكون فيه الماء لا ينبت للنار فيه ريش ولا جناح، سواء أنت ترش الماء على النار، أو تلقي النار في الماء، فلا خير للنار في كلتا الحالتين، وإذا صببت الماء على أعظم شعلة، فيحيط بها من كل جانب، ثم يأتي عليها ويلتهمها تماما، وتبقى تلك الشعلة المسكينة مسودة الوجه (فحما).

فالحاصل: أن النار سواءٌ تُوَاجِهُ هي الماءَ، أو يواجه الماءُ النارَ، في كلتا الحالتين تظهر قوة الماء على النار، وسِرُّ هذه المغلوبية وتلك الغالبية هو نفس ذلك الأصل الطبيعي الذي تحدثنا عنه قبل قليل، أعني أن النار بلطافتها كان لأي جسم أن يدخل فيها، ولكن بسبب عدم صفاء وجهها لا يُرَى فيها عكسُ ذلك الشيء وصورتُه، خلافا للماء فإنه يَدخُل فيه ذاتُ الشيء، ويُرَى فيه عكسُه أيضا؛ لأنه لطيف المادة ولطيف الصورة معا، يعني أن أيَّ شيءٍ تُدْخِلُه فيه يَدْخُل ويقعد في قاعه وقعره، -ومع أنه رقيق وسائل- لكنه بسبب صفاء وجهه ونقاء سطحه يُرِي عكسَ ذلك الشيء وصورتَه أيضا في نفسه.

فصفة الماء أنه يمكن لأي شيء أن يشقه ويخترقه فيدخل فيه من جانب ويخرج منه من جانب آخر؛ وصفته هذه وإن اشتركت النار معه فيها، ولكن من كمال لطافة الماء أن البصر أيضا يشقه، بينما النار لا يشقها البصر، ففي الماء لطافةُ الحديد التي تنعكس بفضلها الصورة فيه، ولطافةُ النار المعبَّر عنها بعدم التكاثف، لذا نقول بأن قوة الماء أكثر من قوة النار والحديد، ولعل هذا هو سبب أن الماء يقضي عليهما، وهما لا يغلبان عليه، ولهذا دائرة أثر الماء أيضا أوسع من دائرة أثر النار، فإذا أشعلت

النار في مكان مغلق من جهاته الأربع فيبقى أثر نورها محدودا في ذلك المكان، ولكن الماء إذا وُضِعَ في مكان مسدود فلا يبقى أثره في ذلك المكان فقط، بل يصل أثره من الرطوبة والنداوة إلى الأشياء المجاورة به إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ، فمثلا المستنقعات والأنهار التي توجد بجوار القرية فيترطَّب بها كل شيء في القرية: المناخُ والهواءُ، وحتى أمزجة الناس أيضا. وهذا من معجزات لطافة الماء وسرعة نفوذه. وأمر آخر أن النار والحديد لا ينفذان في مسام الجسم، بينما الماء ينفذ بلطافته الخاصة في أرق منفذ وأدقه، ومن المعلوم أيضا أن الغلبة والطاقة على قدر اللطافة، فثبت منه أن الماء أغلب وأقوى من النار وهذا مما لا شك فيه.

عنصر الهواء

نتقدم إلى الأمام، وننظر في الهواء، فالماء الذي كان يقضي على النار، يمسي أمام الهواء مسكينا عاجزا فاقد القوة، ولا يستطيع أن يفعل شيئا، وإن أراد أن يبقى هادئا ساكنا فلا يستطيع، وإذا هبت العاصفة فتقلب البحارَ العظامَ رأسا على عقب، فضلا عن الأحواض والمستنقعات، فأمواج المياه تتساقط بعضها على الآخر فوجا على فوج، ولا يكون للبحر مع عظمته

وهيبته قرار أيما قرار، وإن كان الماء راكدا فيطيِّره الهواء ويجفِّفه، وإذا لم يكن للماء مخزن آخر محفوظ فلا يبقى للماء وجود، فعُرِفَ من هذا كله أن الهواء أقوى من الماء، وحكمه ماض عليه، وسبب ذلك هو نفس الأصل السابق أن الهواء أكثر العناصر الأربعة لطافة وشفافية، ووصلت لطافته الجسمانية إلى حد أن العين التي هي ألطف شيء تبدو أمامه كثيفة، فلا تستقر العين عليه ولا تراه، وعندما يلمسنا الهواء فنعرف بحاسة اللمس أن الهواء موجود، الأمر الذي لا نستطيع به أن ننكر أن له جسما، ولكن غيرها من بقية الحواس الأربع، وحتى الخيوط البصرية التي هي ألطف ما يكون، لا تستطيع أن تنفذ فيه ولا أن تدركه.

وكذلك الهواء بسبب شدة لطافته لا يقبل أيضاً اللون ولا الشكل، اللذين هما من متعلقات البصر، فإذا لا يقبل الهواء البصر فكيف يقبل محسوسات البصر؟ نعم يمكن أن يحصل همسٌ صداقيٌّ وتبادلٌ بالنظرات بين الهواء والأصوات والروائح وغيرهما من الأشياء اللطيفة التي ليس لها شكل ولا هيئة، وبسبب لطافتهما تتحللان في الهواء، وينشرهما الهواء -بعد قبولهما- هنا وهناك.

وأما أثر الهواء فهو موجودٌ في كل زاوية من زوايا الفوق

والتحت، وفي كل منفذ من منافذهما، وحتى الأماكن التي لا تصل إليها أضواء النار ولا نداوة الماء، يصل إليها الهواء ويحتلُّها، بل ما من فراغ يحصل وإذا بالهواء يملؤه، إذا أردت أن تأتي بالماء إلى موضع من المواضع فاعمل لذلك جدولا، ثم أوجد مصبًّا منخفضا، ثم أوجد في تحرك الماء تدرُّجًا، وأما الهواء فلا يحتاج إلى مد ولا إلى جزر، ولا إلى مصب منخفض، ولا إلى مصعد عالٍ، وجد الفراغ وجاء فيه، كأنه كان موجودا من قبل حصول الفراغ.

الحاصل أن الهواء كان ألطف شيء، فلذا صار أقوى شيء وأغلب، يتحكم على جميع العناصر، وهو أعلى وأرفع من الجميع، وهو جارٍ وسارٍ في الكل.

جامع العناصر الأربعة الإنسان وقوته

ولكنْ كلُّ هذه العناصر ومواليدها الثلاثة والفروع اللامتناهية المتولدة من هذه المواليد إذا وضعناها في كفة، ووضعنا الإنسان بوحده في كفة أخرى، فيظهر أن الإنسان أشد وأغلب عليها ومتصرف فيها، وكل هذه العناصر في أداء مُهِمَّتها محتاجة إلى الإنسان ومغلوبة على أمرها، وأما الإنسان

فهو ليس تحت تصرف واحدٍ منها، ولا مغلوبا منها، وذلك للأسباب التالية:

[قوة الإنسان أشد وهي ذاتية وقوة العناصر عرضية[٣]]

١- إن نسبة القوة القائمة بين كل عنصر، التي تظهر بلقاء المقابل منها، هي تحتاج في ظهورها الجزئي إلى الإنسان، فالحديد لا يكسر الحجر بنفسه، والنار لا تذيب الحديد بنفسها، والماء لا يطفئ النار بنفسه، والحركات المتخالفة للهواء لا تَحْدُث بنفسها، بل كل هذه الآثار تظهر بعمل الإنسان، فهو الذي يصنع المعاول ويكسر بها الصخور، وهو الذي يصنع الكير ويُحْمِي فيه الحديد، وهو الذي يأتي بالماء في القرب والأسقية، وهو الذي يبرِّد الموقدَ، وهو الذي يقيِّد الهواء، وهو الذي يطيِّر السيالات.

فثبت مما سبق أن أعمال العناصر الأربعة المغلوبة رهينة بأفعال الإنسان إلى حد بعيد، ولو لا يتدخل الإنسان بتصرف فيها لتبقى في مخازنها تتقلب وتتمادى، ولا تستطيع في ميدان

[٣] حيث إن الشيخ وضع لكل هذه الأسباب عنوانا غير هذا السبب، فوضعناه نحن توحيدا للمنهج.

المسابقة أن تثبت تغلُّبَها في إصدار تلك الأفعال الجزئية عنها، فالإنسان الذي يتوقف عليه غلبة غالب، ويتوقف عليه انتصار قوي من الواضح جدا أنه أغلب على كل هذه العناصر، وهذا دليل قوي لأشدية الإنسان.

التصرفات الإنسانية في العناصر

٢- وليس الأمر أن الإنسان وسيلة محضة لإظهار النسبة بين قوى العناصر وطاقاتها، بل جميع قوى تلك العناصر وطاقاتها في تصرف الإنسان، ومسخرة له، فشقَّ الإنسانُ صدرَ الأرض وقلْبَها وكبِدَها، فحفر الآبار فيها، وعمل فيها السراديب، وسلب الكحل والذهب والفضة والصفر وغيرها من معادنها في الأرض، وقطع الجبال وبنى فيها طوابق من المباني بعضها فوق بعض، وقمم الجبال الباردة المغطاة بالثلج التي لا تستقر فيها الطيور، بنى عليها الإنسان عمارات عالية، وشق فيها الطرق والشوارع، والأنفاق والأسراب، وسَيَّرَ فيها القطارات والسيارات، ﴿وَ تَنْحِتُوْنَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوْتًا﴾ [الشعراء:١٤٩]، وكشف عن خزائن الأرض ودفائنها فأفشى به سرَّ أثقالها أمام العالم، ومازال يستخدم الأرض وأجزاءها كالخدم والعبيد.

خذ الماء، كيف أن الإنسان بحث عنه في قاع الأرض وعمقها، فحفر فيها بئرا وأخرجه منها بالحبل والدلو، وركَّب فيها مضخات يدوية للمياه، ونزع بها الماء من مئات الأقدام من تحت الأرض، وقطَّع البحارَ قِطَعًا وأجزاءً، وأجرى الماء في الأنهار والجداول وسقى به الحقول والمزارع، وبرَّد به المنازل، وشربه الإنسان فبرَّد كبده، ونَهْرَا "كنكا" و"جمنا" يتيهان هائمَيْنِ هنا وهناك في القارة الهندية، وأخزى الإنسان الماءَ وفضحه بإيصاله إلى كل بيت بواسط عمال المياه، حتى أنه أجبر الأمهات على أن يغلسن به براز أطفالهن وبولهن.

والماء الذي كان عنصرا حرا طليقا قيده الإنسان في الخزانات، وقيده في الحنفيات، واحتاج لخروجه منها إلى فتح الحنفيات، وهذا كله نتيجة تسخير الإنسان له، والماء بميله الطبيعي ينزل إلى الأسفل، ولكن الإنسان صعَّده إلى مبانٍ ذواتِ عشرين أو ثلاثين طابقا، ثم يرميه من فوقها إلى الأرض، وجمده ثلجا حينا، وطيره بخارا حينا آخر، وسخنه بالنار تارة، فالحاصل أن الماء الذي كان يتعوذ منه أقوى عنصرٍ النارُ، هو أمام الإنسان عاجز، لا أحد ينصره.

أكبر بيتٍ للمياه وأبوها هو البحر الأعظم الذي ابتعد عنه

الربع المسكون للدنيا خوفا منه، وأمواجه كالجبال تهاجم الجوانب البرية على التوالي، كأنه يغرق الكرة الأرضية في نفسه، فهذا البحر الأعظم مع كل هذه العظمة والهيبة ما استطاع أن يسلم من تصرفات الإنسان فيه، فشق صدره، وأمخر فيه البواخر، ونشر فيه الأسلاك، وقاس عمقَه بالزوارق الغارقة، وأخرج منه اللآلي المدفونة فيه، وتباع الأشياء المختفية في قاعه في الأسواق، وحتى مياهه المالحة أجريت عليها إجراءات التحلية، ففصل منها الملح والرطوبة، وحتى كأن الإنسان شرب دم هذا البحر أيضا، ثم قطَّعه قطعة قطعة.

الحاصل أن هذا الماء الأقوى أصبح عاجزا ومقيدا بحيث إنه لا مفر له ولا ناصر من الإنسان في أي مكان، لا في أعماق الأرض، ولا في سفح الجبال، ثم هو يُستعمَل في أرذل الخدمات، فتُغسَل به النجاسات، والأواني القذرة، وتنظف به الملابس الوسخة، وغيرها من الخدمات، مما يدل على أن هذا العنصر الألطف عبد وسجين مقيد أمام قوة الإنسان إلى أبعد مدى.

نأتي الآن إلى "النار" أخطرِ عنصرٍ وأسفكه، فهي أيضا تبدو أمام الإنسان عبدا مجبورا ذليلا، هي إذا اختفت في الحديد والحجر فيستخرجها الإنسان منهما شرارةً بضرب أحدهما على

الآخر، وإذا اختفت في الشمس فيقيدها الإنسان بالزجاجات النارية، وإذا عاد الإنسان نفسه أن يُخَبِّئها ويقيِّدها هو فيقيدها على رأس عودٍ في قليل من الكبريت، لكي يُخْرِج هذا السجين المقيد من قيده متى شاء بتدليكٍ بسيطٍ على حديد أو حجر فيخرج فورا، كأن النار التي ما كانت تطأطئ رأسها أمام أحد مستسلمةً، هي أمام الإنسان بقيت عاجزةً مسكينةً، وغاب تكبُّرُها وتعلِّيها، ولا حول لها ولا قوة، فهي تخدم الإنسان بالمواقد حينا، وبالمجامر حينا آخر، وبالمصابيح البوتاغازية أحيانا أخرى إذا زُكِّيَت نفسُها بذهاب دخانها وسوادها.

الحاصل أن عنصر النار أيضا دُمْيةٌ بأيدي الإنسان، قَلَّبها متى شاء، وصرَّفها متى أراد، و لم يتركها لتستريح.

والهواء كان أكثر العناصر لطافة وحجابا، حتى عين الإنسان أيضا ما استطاعت أن تراه، ولكن حجابها هذا ما استطاع أن يحفظه ويحميه من تصرفات الإنسان فيه، فأصبح هذا الطائر (الهواء) لعبة بيديه، فتَطِير طائراتُه في الفضاء الهوائي، ويحملها على أكتافه متنقلةً بها هنا وهناك، كأن الهواء ليس بهواء، وإنما هو حصان هوائي للإنسان، ركبه بدون خطام ولجام وزمام.

وأيضا يخدم الهواء الإنسان دائما في اتصالاته وإعلاماته،

فهو ينقل أخبار العالم، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، كأنه ساعي بريدٍ للإنسان يخدمه بدون أجرة وبالمجان.

وفي جانب آخر، يَرْقص الهواءُ لتتحرك به المراوح الكهربائية، ويجفِّف عَرْقَ الإنسان، فهو مشغول دائما بخدمة الإنسان كالخَدَمَة، دون قيل وقال، ودون لماذا ولكن. ولما أراد الإنسان أن يحبسه فحبسه في كل كفرات العجلات، من السيارات، والدراجات النارية والهوائية، والبنادق والكرات المطاطية.

الحاصل أن هذه الطاقة الغير المرئية التي كانت قد قلبت البحار رأسا على عقب، لما قيدها الإنسان أصبحت بأيديه سجينا محضا، لا أحد يسأل عنه وعن حاله.

إيجادات الإنسان في العناصر

٣- لم يقتنع هذا الإنسان الجبَّار بذلك القدر من التصرف في العناصر الأربعة (أي يستخدمها وهي تبقى على أصالتها)، بل حمله حبُّه للإبداع والإيجاد على أن يفني هذه العناصر بخلق الصراع بينها، فيأتي بإيجادات جديدة، ليستخدم الخزائن الأخرى المدفونة في الكون أيضا، فمثلا:

هو بوضع الماء على النار يوجد الصراع بينهما، فالنار تريد

أن تغلب على الماء بتطييره بخارا، والماء يريد أن ينتصر على النار بإماتته إطفاءً، وهكذا يتصارعان متغايظين ومتغاضبين، وأما الإنسان فهو يوجد بصراعهما هذا طاقةً بخاريةً، يسيِّر بها محرِّكَ القطارات والماكينات، فمئاتُ آلافِ طنٍّ من الحديد تتراقص بهذه الطاقة البخارية الغير المرئية، ومئات آلاف مصنع تشتغل بها، ومئات آلاف ماكينة تدور بها، وتُحرَق في المحرقات معادنُ الفحم، وتُطحن في الطاحنات الحبوب وغلاَّت الأرض، كأن الكون كله يُدَاس ويُقْطَع ويُفْنَى، وهو لا يتأفف ولا يتأوه، ولا يسمع له أنين؛ لأن هناك مخلوقا اسمه إنسان يتحكم فيه واقفا عليه، والذي بحركة أصبعه الواحدة ثار هذا الطوفان كله على العناصر الأربعة ومواليدها الثلاثة.

ثم أوجد الإنسان صراعا بين الماء والماء، وولَّد به البرق (الكهرباء - كأنه أشعل النار في الماء)، البرق الذي يأتي بأخبار الأقاليم في دقائق بسرعته الفائقة، ويجعل الأرض والسماء شيئا واحدا بتحركاته السريعة، فهذا البرق أيضا لم يسلم من تصرف الإنسان، فقيده في أسلاك النحاس والصفر تقييدا، لا يستطيع أن يفك نفسه من قبضتها، والزِرّ النحاسيّ (البلاستيكي الآن) الصغير المسمّى بالمفتاح الكهربائيّ قُفْلُه، إذا نَزَّلتَه إلى التحت جاءت الكهرباء، وإذا رفعتَه إلى الفوق غابت، كأن فوجًا برقيًّا

عظيمًا مقيدٌ في قيدِ جنديٍّ خفيفٍ نحيفٍ، ومع ذلك لا يستطيع هذا الفوج العظيم أن ينال من ذلك الجندي النحيف الواحد شيئا. وليس هذا حال البرق الصناعي (الكهرباء) فقط، بل استعد الإنسان لقيد البرق السماوي أيضا في الأغلال والقيود، فنصب على سطوح المباني الشاهقة قضيبَ "مانعة الصاعقة" الواصل إلى ما تحت الأرض، لمنع نزول الصواعق عليها وإضرارها بها؛ لأنها عند نزولها على تلك المباني يشغلها ذلك القضيب بنفسه، ويُنزِّلها مطيعةً إلى الأرض بواسطته.

ثم عمل الإنسانُ صراعًا بين النار والبترول السيال (بأن أشعل فيه النار)، وولَّد بهذا الصراع الناري البترولي الغازات، التي تسير بها سيارات الإنسان السيد، وتطير بها طائراته.

الغرض أن هذا الإنسان على صغره ونحافته أتعب كل شيء في الكون إتعابًا، وأخضعه إخضاعًا. والأعمال التي قام بها كل عنصر على حدةٍ، عملها كلها بل أكثر هذا الإنسانُ المجموعُ العناصرِ، وكل ما في البر والبحر، وما في اليابسة والمائية هو مبتلى بمصيبة منه، لا سكون له، ولا راحة في أي وقت، والإنسان لا يزال يبذل أقصى جهد في تصريف هذه العناصر وتقليبها، وتوقفت به أنفاس كل شيء في الكون، وكلُّ الحيوانات والجمادات في أَسْرِه وقيده.

هناك قصة مشهورة بين الناس أن أسداً نصح ابنه الصغير بأن يكون دائما على حذرٍ عن الإنسان؛ لأنه شيء عظيم، كان الابن مشتاقا إلى رؤية هذا الإنسان العظيم، فلما بلغ رشدَه قليلا خرج بحثا عن هذا الإنسان الذي يخاف منه ملك الصحراء في مملكته.

فمشى قليلا فوقع بصره أولا وبالصدفة على حصان، فرأى ديناميكيته وجسامته وذكاءه فقال في نفسه: لعله هو ذلك الإنسان، فسأله هل أنت إنسان؟ فقال: أنَّى لي إنسانا، أنا مسكين لا أستطيع الوقوف أمامه، فالحبل في رقبتي، والقيد في رجليَّ أربعا وعشرين ساعة، والإصطبل سجني، ولما أراد السيد الإنسان الركوب ألجمني وركب على ظهري، وفوق ذلك أنه أمطر على ظهري سيلا من الأسواط، أنا الذي أعرف كيف أقضي حياتي معه.

ذُعِرَ ابن الأسد، وهَمَسَ: أيُّ بلاءٍ هذا الإنسان؟ ليست العناصر فحسب بل المواليد (الحصان منها) أيضا مبتلاة به.

تقدم قليلا فوقع بصره على جمل، فوجده ضِعْفَي الحصان جسما، وعجيبَ الخلقة أيضا، فحصل له شبه يقين بأنه ربما هذا هو ذلك الإنسان، أنه أعلى من الفرس بأربعة أذرع، فسأله هل أنت إنسان؟ فسمعه أيضا يتعوذ منه، قال: لا تنظر إلى طولي

وقامتي، أنا على الرغم من جسامتي هذه وفخامة بدني تلك ألجم الإنسان لساني، لست أنا بوحدي، بل مئات من الإخوان أمثالي مقيدون بلجام، ويسير بهم طفل صغير هنا وهناك في الصحراء، وأطنان من الأثقال على ظهورنا، ونحن نرغو ونئنُّ تحت الثقل ولا أحد يسمنا ليغيثنا من هذا الإنسان، واتخذ أعناقنا سلالم لركوبه على ظهورنا، كلما أراد ركب، ليس واحد أو اثنان بل ثلاثة أنفار يركبونا، وليسوا هم يركبونا فحسب، بل يشدُّون على ظهورنا سريرا ثم يجلسون عليه بكل اطمئنان، ونحن نسير في سكوت وصمات، نقطع منازل ومسافات، نسير ليالي ونحن راغيات، ولا مخلص لنا من هذه الأتعاب والمشقات. الغرض: أن مصائبنا هذه وحياتنا العبودية تلك كلها بسبب هذا الإنسان، نحن لا نذكر حتى اسمه بدون خوف وخطر، فضلا عن أن نكون إنسانا.

عندما سمع ابن الأسد كلام الجمل هذا ازداد خوفًا ودهشةً، وكوَّن في تصوره الإنسانَ مخلوقا أجسم وأفخم، يتعوذ منه أمثالُ الجمل الذي هو أعظم خلقةً.

تقدم ابن الأسد قليلا فوقع بصره على فيلٍ آتٍ إليه، كأنه مبنًى عظيم قائم على أربع دعائم عريضة ضخمة، فتيقين يقينا كاملا أن هذا هو ذلك الإنسان، وهذه هي تلك الشخصية التي

تستطيع أن تغلب على الجِمَال والأفراس، فسأله الابن قائلاً بتخوُّفٍ: أغلب ظني أن اسمكم الكريم "إنسان"؟ فنظر الفيل إليه في حيرة وقال: يا بُنَيَّ! أنت غافل، أيُّ بلاء مكروه تفوهتَ باسمه؟ الحالة السيئة التي وصلتُ إليها أنا الجسيم الضخم، سببها هو ذلك الإنسان الظالم، لا يقدِّرُها الله للعدوَّ أيضا، فهو يضع اللجام في فم الفرس، ويُدخِل الزمام في أنف الجمل، ولكن الظالمَ يركب على ظهري بدون أي شيء، لا لجام، ولا زمام، وأنا أمامه مجبور وعاجز محض، لا أستطيع أن أعترض عليه، يركبني دائما وفي يده كلُّوب إذا توقفت عن السير، وتباطأت قليلا، فيخدش به رأسي حتى يبلغ الأذى مبلغه، ولا حول لي أن أتأفف أمامه، وأنصحك يا بني! أن تعمل بوصية والدك، وتحافظ على مملكتك في الغابة، ولا تقترب من ذلك الإنسان، وإلا فسوف يُنَغِّص عليك بُنُوَّتَك الْمَلَكِيَّةَ، ولا يصل إليك أحد لاستغاثتك.

تحير ابن الأسد واندهش، وسأل نفسه قائلا: أية جسامة يمتلكها الإنسان، وأية ضخامة يحويها، حتى اشتهر أمر غلبته وتسلطه في العالم بهذا القدر الذي أراه عليه الآن، وأخيرا أراد أن يرجع خائبا وخاسرا، وأثناء عوته إلى بيته رأى في غابةٍ ابنًا لنجَّارٍ، ينشر سارية الخشب بمنشار، وكان قد أدخل ابنُ النجار

مسمارا خشبيا في الشق الذي حصل بالنشر، لم يتخيل ابن الأسد أن هذا سوف يكون ذلك الإنسان، ولكنْ سأله مستطلعا: هل أنت تعرف الإنسان؟ أجابه ابن النجار: ماذا تريد منه؟ قال ابن الأسد: أنا أريد أن أراه. فقال النجار: أنا الذي يقال له: إنسان.

فنظر إليه ابن الأسد بنظرة فيها احتقار واستغراب معا، وقال: أنت ذلك الإنسان الذي يهاب منه الأسد والفرس والجمل والفيل؟ فقال ابن النجار: نعم، هذه هي الحقيقة الواقعية. فزأر عليه ابن الأسد صارخا: أيها العدو! من أنت؟ وأيّةُ مكانةٍ لك؟ لو لطمتُك الآن لطمةً واحدة لتقضي عليك، ما أغبى آبائي وأجدادي أنهم كانوا في خوف دائم منك، وما أحمق أولئك الذين خوفوني منك في الطريق، وبعد هذا التعلي والزهو تقدم إلى ابن النجار ليختبر قوته، فتفرس ابن النجار أن الوقت السيئ قد حان، والخطر داهَمَ، فيجب أن يتحكم على الوضع بتعقل وحكمة.

فبدأ يمدح ابنَ الأسد قائلا: ما أشجع أنت! وما أجرأ السيد ابن الأسد! وأنا لست بشيء، والقول قولك، وعندي عملٌ الآن، لا أستطيع أن أقوم به بسبب ضعفي، فأرسلك الله إلي؛

وأنت من أنت، أقوى وأشجع، فأرجوك أن تعمل ذلك العمل أولا، ثم اعمل معي ما تشاء، وذلك العمل هو أني أريد أن أدفع هذا الوتد في شق السارية الخشبية إلى الأمام، فأرجو منك أن تدخل يدك في هذا الشق إبقاءاً له على حاله مفتوحا، حتى أدفع الوتد إلى الأمام.

فتباهى ابن الأسد وانتفخ بهذا المدح المعسول، وتقدم دون تفكير لينجز ما طلبه منه ابن النجار، ولم يُدْخِل في الشق يدا واحدة فحسب، بل أدخل فيه يديه الاثنتين، وأخرج ابن النجار الوتد منه، فإذا بالشق قد انضم على يديه، وما استطاع ابن الأسد أن يسحبهما، وبدأ يصيح ويصرخ، وابن النجار بقي قائما يضحك عليه، وقال مستهزئا: هل رأيت الإنسان؟ هنا ندم ابن الأسد، على أن من لم يستمع إلى نصيحة المجربين والكبار تكون عاقبته سيئة، ثم بدأ يفكر في أن هذا الإنسان في ظاهره ضعيف وحقير، فجثته ليست قوية يقينا، يبدو أن هناك قوة أخرى خفية فيه عملت عملها ضدي الآن، حتى أصبحتُ عاجزا أمامه، وصرع بها العالَمَ كلَّه وركَّعه.

هذه القصة تلقننا درسا وعبرة، بأننا في ضوء هذه المشاهدات نُضْطَرُّ إلى التصديق بأن الإنسان أكثر طاقة وقوة من

العناصر الأربعة، الأمر الذي جعله أقوى على مخازن العناصر الأربعة، وعلى مكونات مواليدها الثلاثة، ويستطيع أن يعمل فيها بغلبة الغالب على المغلوب، وبتصرف الحاكم في المحكوم، ولما سُلِّم بهذا فيجب أن يسلَّم أيضا بأن الإنسان أكثر لطافة بكثير من العناصر لأننا أثبتنا من قبلُ أن الطاقة في اللطافة، ولا يوجد في الكثافة غيرُ الضعف والعجز.

فلما ثبت أن الإنسان أقوى من الهواء الذي هو ألطف عنصر، فثبت منه تلقائيا أن اللطافة في الإنسان أكثر بكثير من الهواء، ليستطيع أن يحافظ على حاكميته القوية عليه.

سرُّ قوة الإنسان وتسخيره هو روحه

ولكن من الواضح جدا أيضا أنه لا يوجد في ظاهر الإنسان شيء لطيف، لا فيه لمعان مثل لمعان المرآة المصقولة والماء الصافي، حتى يرَى فيه الناظر وجهه، ولا هو نفسه منوَّر ووضَّاء تشع منه الأشعة في الفضاء، وتصدر منه الأضواء، ولا هو غير مرئي مثل الهواء، فمن أين جاءت فيه تلك اللطافة التي غلبت على اللطافات الأخرى؟ من الواضح أن تلك اللطافة لا يمكن أن تكون من جسده؛ لأن جسده مجموع من تلك النار والماء

والتراب، وإذا كانت فيه قوةٌ مَّا بحكم كونه مكونًا من هذه النار والماء والتراب، فما كان بإمكانه أن يغلب بذلك الجزء القليل من النار والماء على جميع مياه العالم ونيرانه؛ لأن النار والماء الجسميين جزء من تلك النيران العالمية والمياه الآفاقية، ومن المعلوم أن الجزء لا يغلب على الكل، قطرة من الماء كيف تغلب على البحر؟ وجمرة من النار كيف تغلب على الكرة النارية؟ وذرة من الغبار كيف تحكم على الكرة الأرضية؟ بل كان من المفروض في الوضع الحالي أن يكون العكس، بأن يغلب هذا العالم المادي عليه من كل وجه، ويُسكِته مبهوتا، فضلا عن أن يسخِّر هذا الإنسان العالم كله، ويحبس العالم أنفاسَه أمام هذا الإنسان الضعيف البنيان.

لا شك في أن تسخيرَ الإنسانِ هذا الكونَ ليس بلطافة جسمه، ولا بلطافة الماء والنار والهواء الموجودة فيه، بل يبدو أنه بواسطة شيء آخر ألطف من الهواء أيضا، (فضلا عن الماء والنار)؛ لأن الهواء على الرغم من أنه شيء غير مرئي، يحس الإنسان بلمسه، فلْيَكُنْ ذلك الشيء ألطف بحيث لا يحس بلمسه أيضا مع أنه يسري في شرايين الإنسان وعروقه، ثم هو متصل بالإنسان بحيث لا وجود له بدونه، ومنفصل عنه بحيث لا

تدركه أية حاسة من حواس الإنسان، وهو لا يتأثر بأي شيء، لا بارد ولا حار، لذلك هو غالب على العناصر الأربعة فضلا عن الجسد الذي هو فيه، ومن الواضح جدا أنه لم يبق في جسم الإنسان شيء هذه صفاته غير الروح؛ لأن الإنسان مركب من الجسد والروح، وهذه القوة ليس في جسده، فثبت منه أن هذه معجزة الشيء الثاني وهو الروح.

لطافة الروح الإنساني والنورانية الحسية

فالحاصل أن الروح ليس ألطف من العناصر الأربعة فقط، بل هو ألطف من كل عالم مادي، ثم لطافات الروح هذه ليست معنوية وغير مرئية فحسب، وإنما هي حسية أيضا، فأنواع اللطافات التي كانت في العناصر الأربعة إذا تأملت تجدها كلها في الروح أيضا.

تأمل: المرآةُ المصقولةُ والماءُ الصافي يعكسان الصورَ، وعينُ الإنسان أيضا أعطاها الروح بريقاً تعكس به كلَّ ما تقع عليه من المناظر والصور والمشاهد، ولكن الفرق بينهما أن صورة المرآة لا أصل لها؛ لأن جانبها الخلفي فارغ، بينما الصورة التي

تعكسها العين مازالت باقية؛ فإن وراءَ العين حسًّا مشتركًا يبقى فيه كلُّ عِلْمٍ مصوَّرٍ.

إن كان تنتشر من النارِ الأشعةُ فتنتشر من العين البصارةُ، التي ليست أقل من الأشعة بأي حال من الأحوال؛ إذ بالأشعة تتنور الأشياء أمام العين فقط، وبالبصارة تتنور الأشياء أمام القلب، الذي يفكر في حقيقتها أيضا.

وإن كان الماء ينفذ بلطافته في الأجسام، وحتى أصلبُ الأجسام أيضا لا يستطيع أن يحفَظَ نفسَها من سريان الماء فيها، بينما الروح أيضا إذا اتصلت بالأجسام فتنفذ في كل شريان من شرايينها، وحتى أصلبُ العظام أيضا تأخذ منها النداوة والنضارة، ثم إن الماء يبرِّد فقط مكانه بسريانه، بينما الروح فهي تحيي مكانها بدورانها.

وإن كان الهواء لا يُرَى بغاية لطافته فالروح أيضا بسبب لطافتها اللامتناهية لم يُرَ حتى يومنا هذا، وكما لا يُحَسُّ بلون الهواء ورائحته، أو ليس له لون ورائحة إطلاقا، كذلك الروح أيضا بريئة من هذه الخواص.

الغرض: كل ما للعناصر من كمالات اللطافة ودرجاتها ومراتبها، هو موجود في الروح أيضا، لذلك إن كانت للعناصر مناسَبَةٌ جزئيةٌ مع الله تعالى وبها كانت قوية، فللروح مع الله كل

تلك المناسبات مجتمعةً، لذلك يلزم أن تكون الروح أقوى من العناصر، وما تستطيع العناصر أن تعمله بصعوبة، يصدر ذلك عن الروح بكل يسر وسهولة، فلا وجه لأن يكون كلُّ عنصرٍ بطاقتِه أشد من الآخر، ولا تكون الروح بطاقتها أشد من العناصر جميعا، لهذا يكفي لتفوُّق القوة الروحانية على القوة العنصرية والمادية أن العناصر تملك قوة جزئية، والروح تملك كل تلك القوى مجتمعةً، وللعناصر مع الله مناسبة جزئية، وللروح معه مناسبة كلية.

لطافة الروح وطاقته المعنويتان

ولكن إذا تأملنا في الروح أكثر فنجد أن مناسبة الروح مع الله تعالى ليست مثل مناسبة العناصر مع الله، وبلفظ آخر: هذه ليست مجرد مناسبَةٍ، بل هي -نوعًا مَّا- مماثلةٌ له تعالى يضرب بها المثل في أوصافه وكمالاته الخاصة، والعناصر عاريةٌ صِفْرٌ من تلك الكمالات، فلا مقابلة بينها وبين الروح من قريب ولا من بعيد، فمثلا: إن كان الله تعالى مدبرا وقيوما للعالمين كلها بطريقة غير مرئية، فالروح أيضا مدبر وقيوم لعالم البدن بطريقة غير مرئية، فلو اعتزل الروح عالَمَ البدن قليلا ليتغير نظامُه تماما

كما يصير عند الموت.

ثم كما أن أنوار الله تعالى تتجلى في كل ذرة من ذرات الكون، وتَستخدِم هذه الأنوارُ كلَ جزء من أجزاء الكون ومناطقه حسب ما يليق لها، ومع هذا الظهور التام لها لم ترها عينٌ مًّا، ولا باصرة، وكذلك أنوار الروح أيضا تسري في جميع كائنات البدن، وتستخدم كلَّ عضو من أعضائه حسب ما يليق لها، ومع هذا الظهور للروح في كل شرايين البدن، وفي بريق العين، وحمرة الوجه، وسواد الشعر، وبياض الأسنان، ونضارة الجسم، بحيث إنها إن لم تكن في الجسم فتنعدم كل هذه التجليات، ولكنها مع هذا الظهور التام لها في الجسم هي غير مرئية حتى الآن، بحيث إنها نفسها لم تر ذاتها، فهي ظاهرة ومختفية في وقت واحد (هنا شعر عظيم باللغة الأردية، ترجمته):

بدون حجاب هي بأنها في كل ذرة متجلية
ومع ذلك، الخمار على وجهها، فحتى اليوم صورتها غير مرئية

(بے حجابی یہ ہے کہ ہر ذرہ جلوہ آشکار
اس پہ گھونگٹ یہ کہ صورت آج تک نادیدہ ہے)

فكما هو ظاهر وباطن، كذلك الروح أيضا ظاهرة وباطنة.

ثم إن الله تعالى أولُ وأقدَمُ من حياة هذا الكونِ وكلِّ

حركاتِ الحياة ونقلاتها؛ لأنه هو الذي أعطى لكلِّ شيء في العالم الوجودَ، ولا يمكن لشيءٍ عملُ شيءٍ قبل وجود الله، وأنتَ لا تستطيع أن تُثبِت للعالم عملاً حصل وأتى الله تعالى بعد ذلك العمل؛ إذ بدونه لا حياة للكون، وبدون الحياة لا نقلَ له ولا حركةَ، فكيف يوجد المخلوق قبل وجود الخالق؟ بل من الضروري أن تكون ذات الله تعالى موجودة قبل المخلوق وجميع أفعاله. ثم إن الله تعالى هو منتهى كل شيء أيضا في العالم، وإليه تنتهي جميع حركاته ونقلاته، ولا تستطيع أن تثبت عملاً للعالَــمِ تجاوز اللهَ تعالى وتقدَّمه، وتركه وراءه، وذلك لأن بالله تعالى حياة هذا الكون، فلو ادعى أحدٌ ذلك فكأنه ادعى أن الكون وأفعاله وُجِدَا بدون ما به حياتهما، وهذا محال عقلا. فثبت أن ذات الله هي منتهى العالم وجميع حركاته وسكناته، ولا شيء قبله ولا بعده، وهو أول كل شيء وآخره، كما كان ظاهرا وباطنا. وكذلك تماما الروح هي أولُ جميع حركات عالم البدن ونقلاته، وآخرها أيضا؛ لأن الروح لما كانت سببا لوجود البدن وحياته، فكيف يكون عملُ حياةٍ مَّا قبل الحياة الأصلية (أي الروح)؟ فثبت أن الروح أولُ كلِّ عملٍ. وكذلك لما كانت الروح سببا لحياة البدن فلا يكون أيُّ عملٍ لعالم البدن مؤخرا

عن الحياة، فثبت أن الروح هي مبتدأ الحياة، وهي منتهى الحياة أيضا، ومن ثَمَّ ثبت أن الروح هي أول عالم البدن، وهي آخره أيضا، كما كانت ظاهرة وباطنة.

ثم هذه الروح متصلة بالله تعالى بحيث إنه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] و﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد:٤]. وهي أيضا منفصله عن الله بحيث إن مخلوقات وراء الوراء ثم مخلوقات وراء وراء الوراء مجرد ظلمة، وهو نور مطلق. (هنا قرأ الشيخ مصرعا لبيت باللغة الفارسية، ترجمته):

يا أيها الأسمى من الخيال والقياس والظن والوهم

(اے برتر از خیال وقیاس وگمان ووہم)

ومثله تماما الروح، فهي متصلة بالبدن الحي بحيث إنه إذا انفصل جزء من أجزائه فلا يكون حيا، وهي منفصلة عنه أيضا بحيث إن طهاراتها لا صلة لها بالبدن؛ إذ لا علاقة بين اللطيف والكثيف، أنَّى هذا الطين؟ وأنَّى ذلك الجوهر الطاهر؟ وأين المصباح الميت؟ وأين نور الشمس.

الاستدلال على الإلهيات بصفات الروح

في باب التشبيه نحن كما شبَّهنا الروح بالله تعالى بسبب

تلك المماثلات، كذلك يمكن لنا أن نستدل بروحنا على وجود الله وتوحيده، فنقول:

كما أن عالم أبداننا لا وجود لها ولا بقاء بدون مدبرٍ لها غيرِ مرئيٍّ أي الروح، كذلك هذا الكون كله لا وجود له ولا بقاء بدون مدبر حكيم وهو الله، فبفضل الروح استطعنا استخراج الدليل على وجود الله الصانع من أنفسنا.

ثم لما كان للبدن مدبر واحد وهو الروح، وإذا أصبحت اثنتين أو أكثر لفسد نظام البدن، كما لا يمكن أن يسع غمد واحد سيفين، وقميص واحد إنسانين، كذلك لا يمكن أن يكون لهذا الكون إلا قيوم واحد وحكيم واحد ومدبر واحد؛ إذ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]. هنا بفضل الروح توفر لدينا دليل من أنفسنا على توحيد الله الصانع.

ثم مهما خضنا في قعر الروح لا نستطيع أن نرى لها كما ولا كيفا، ولا لونا ولا جهة، كذلك الله سبحانه أيضا مبرأ من المثلية والجهة واللون والرائحة؛ ولو صدرت منه مناظر متلونة خلابة وروائح متنوعة ساحرة. فتوفر بفضل الروح دليل من أنفسنا على تتريه الله تعالى وتقديسه.

ثم لا شك أن الروح سارية في جميع أجزاء البدن، ولكن

علاقتها مع جميع الأجزاء ليست على مستوى واحد، بل هي مختلفة شدة وضعفا، فعلاقته بالقلب ليست مثل علاقتها بالدماغ، أو بالكبد والمعدة، وعلاقتها بهذه الثلاثة ليست مثل علاقتها بعامة أعضاء البدن الأخرى، لذلك أدنى إيذاء أو إهانة للقلب والدماغ يُغْضِب الروحَ غضبا شديدا، وبأدنى ضرب على هذه الأعضاء الرئيسة تطوي الروح بساطَها وتغادر هذا البدنَ، خلافا للأعضاء الأخرى العامة، فإذا قُطِعَتِ اليدُ والرجلُ مثلاً فَوَلَوْ سُلِبَتِ منه الحياةُ الكاملةُ، ولكنْ ما سُلِبَتْ منه الحياةُ نفسُها، كذلك تجليات الله تعالى سارية في العوالم كلها، ولكنها متفاوتة بتفاوت علاقته بالمواضع شدة وضعفا، فعلاقته بالعرش العظيم ليس مثلها لأي موضع من مواضع السماء؛ لأنه مركز استوائه عليه، ثم علاقته بالبيت المعمور ليس مثلها لأي موضع من مواضع السماء؛ لأنه قبلة الملائكة[٤]، ثم علاقته ببيت الله والمسجد الأقصى والحرم النبوي ليس مثلها لأي موضع من المواضع، ثم علاقته بالمساجد العامة ليس مثلها لأي مكان من

[٤] ورد في حديث الإسراء: «ثم رفع إلي البيت المعمور، قلت: يا جبريل! ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم» أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٣، ص١١٧٣، رقم٣٠٣٥؛ ومسلم في **صحيحه**، ج١، ص١٤٩، رقم١٦٤.

الأماكن. لذلك إذا أهين أي واحد مما ذكرنا أو هوجم عليه فيستشيط الروح الأعظم (أي الله) غيظا، ويثور العالم هيجانا واضطرابا، وتقع حياة الدنيا في خطر عظيم، حتى إذا اقتلعت لبنة واحدة من بيت الله فتُنْزَع الحياةُ من هذا العالم، وهكذا انكشفتْ علينا بفضل الروح علاقةُ الله تعالى بمخلوقاته.

ثم كما أن كل إنسان يسمع نداء روحه ودعوة الحق بآذان قلبه بلا كلفة، ويدرك نصائح الروح بواسطة القلب، مع أن كلام الروح ليس فيه صوت ولا لفظ، كذلك تماما كلام الله تبارك وتعالى، فإنه كلام، وفيه حقائق، وفيه سماع وإسماع، ولكن هناك في بني النوع الإنساني أفراد مخصوصون، وهم الأنبياء عليهم السلام الذين هم بمثابة القلوب في بني النوع الإنساني، هم يسمعونه مع أنه لا ألفاظ هنا، ولا تلفظ؛ ولو تصبح هذه التجديدات بارزة بعد وصولها إلى الناس، فتبين من خلال هذا البيان أننا بفضل الروح أدركنا نوعًا مًّا الكلام النفسي لله والكلام اللفظي له.

ثم إذا أغمضت عينيك فالروح ترى وتبصر، وإذا أصممت أذنيك فالروح تسمع، بل الروح في عالم التصور اللا محدود ترى عند إغماض العيون الأشياء المرئية أفضل وبلا كلفة، وعند

إصمام الآذان تسمع الأشياء المسموعة بلا ريب، مع أنه لا يتصادم مع الروح صوتٌ، ولا تقترب منها صورةٌ ملونةٌ ولا جسمٌ مجسمٌ، وكذلك تماما يسمع الله تعالى كل شيء ويراه بلا مانع ولا حائل، مع أنه ليس هناك لون ولا شكل، ولا صوت، وغيرها من الماديات، فثبت بروحنا سمعُ الله وبصرُه بلا كيف وبلا مثل.

وكذلك إذا ألقينا النظر على أن حياة عالم البدن بحياة الروح، والروح لا يحتاج إلى روح آخر، بل هو نفسه حي بذاته، وكذلك حياة العوالم كلها بالله سبحانه وتعالى، وهو لحياته ليس في حاجة إلى إله آخر، بل هو حيٌّ واجب الوجود بذاته هو، وهكذا علمنا من داخلنا أن الحياة صفة ذاتية لله سبحانه وتعالى.

ففي ضوء ما سبق ليس للروح مناسبات مع الله تعالى فحسب، بل بينهما مماثلات عديدة أيضا، أُوْدِعَتْ بسببها في نفوسنا نماذجُ لكمالات الله اللامحدودة، وقَدَرْنا بذلك على أن نرى كل شيء في داخلنا عيانا، فلذلك لا يمكن أن يكون للروح تعريف جامع أكثر مما ذكره القرآن الكريم: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

فثبت مما تقدم أن الروح أمر لطيف رباني، والجسم كثيف مظلم مادي، ولكنَّ هذه العناصر البدنية التي هي من عالم الخلق، بعد إيجادها أدنى مناسبة بينها وبين الروح، تقوَى بحيث تصبح الدنيا كلها في قبضة يديها، فالروح التي هي من عالم الأمر، والتي لا حد لعمق مناسبتها بل مماثلتها مع الله، فَأَمَا تصبح هي بتلك المناسبة والمماثلة أقوى وأغلب وأكثر تسلطا؟ وإذا استُخْدِمَتْ قوتُها بطريقة صحيحة فهل يستطيع هذا الكون أن يتحملها؟.

فعلى حسب قول ابن الأسد الإنسان أقوى بكثير من النار والماء والتراب، ولكن هذا ليس بفضل البدن الذي هو نفسه مجموعة صغيرة من تلك الثلاثة، فكيف يغلب هذا الجزء المسكين القليل الحقير على مخزنه العظيم الكثير؟ بل هذه القوة العظيمة للإنسان، وهذه الأفعال العظيمة لتلك القوة، إنما تظهر بفضل الروح المودعة فيه؛ إذ لا حد للطافة الروح، فهي مجموعة اللطافة السفلية والعلوية، فثبت بذلك أن الروح أقوى وأشد من جميع الماديات وجميع العناصر.

فكما وضع الله سبحانه تعالى أمثلةً نموذجيةً لنفسه في عالم الآفاق، كي تُدْرَكَ وتُحَسَّ بواسطتها نوعًا مَّا كمالاتُه الظاهرةُ وآياتُه البينةُ، كذلك هو وضع لنفسه أمثلة أكثر وأكثر في أنفسنا

نحن، لنستطيع بها أن نصل على قدر استعداداتنا إلى شؤونه الباطنية وكمالاته الباطنية بطونا عن بطون ﴿سَنُرِيْهِمْ اٰيٰتِنَا فِي الْاٰفَاقِ وَفِيْٓ اَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ اَنَّهُ الْحَقُّ اَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ اَنَّهٗ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

الغرض أن كمالات "العلوم المادية" التي أشرت إليها في التمهيد يبدو في الظاهر أنها تظهر من البدن وعناصره، ولكنها في الحقيقة تظهر من الروح التي طاقتها غير المرئية جعلت العناصر الأربعة على رهن إشارتها، ولا تتركها تستريح كالعمال والأجراء.

الاستعمال الخاطئ لطاقات الروح

ولكن نتساءل: ماذا استفادت الروح من كمالاتها الباطنية التي بَذَلَ الروحُ للحصول عليها مساعيَ حثيثةً، وأَبْرَزَ بتركيب النار والماء والتراب الأعاجيبَ الكثيرة في المواليد الثلاثة؟ وبأي تكريم تكرَّم به الروح من حيث إنه روح بتلك الجهود والمساعي؟ من الظاهر أولاً أن كل تلك الإيجادات العلمية استفاد منها البدن فحسب، فازدادت راحة البدن ورفاهيته، مثل حرارة النار في الشتاء القارس، وتبريد الماء في الصيف الساخن، والاستمتاع بالهواء في الغيث الماطر، كل هذه الراحات

والرفاهيات للبدن فحسب، لا للروح؛ لأنها ليست في حاجة إلى التسخين، ولا إلى التبريد؛ لأنهما ليسا من أوصاف الروح.

وكذلك طيرت الطائرات في الفضاء البدنَ لا الروحَ؛ لأن الروح اللطيفة ليست لطيرانها محتاجةً إلى هذه الطائرات الثقيلة والكثيفة، ولا يُدْرَى أين وأين تطير الروح بعد الموت؟ فأية طائرة هناك تطير بها؟ تأمل: هل الهواء محتاج لطيرانه إلى طائرة؟ لا، بل الهواء نفسه يُطَيِّر الطائرة. فالروح التي هي ألطف من الهواء، وسخرَّته وقيَّدته، بل طيَّرتْه خلافا لطبعه إلى أماكن شتى، فكيف تكون محتاجة إلى هذا الهواء؟ ولما لم تكن الروح محتاجة إلى الهواء فكيف تكون محتاجة إلى المحتاجات إليها أيْ الطيارات؟

وكذلك القطارات والسيارات أية فائدة لها تعود إلى الروح؟ وهي بذاتها محتاجة إلى الروح، فكيف تحتاج الروح إليها؟ لذلك جميع هذه الإيجادات المادية والاختراعات العلمية إنما هي مفيدة للبدن فقط، لا الروح، فالقطارات والسيارات إن كانت تستطيع أن تنقل إلى مئات الآلاف من الأميال فتنقل البدن، والبرق والغازات إن كانت تستطيع أن تضيء فتضيء الأجسام، لا الأرواح التي بضيائها هي ظهرت، والغراموفونات والتليفونات والتليغرافات وغيرها من الأجهزة اللاسلكية إن

كانت تستطيع أن تنفع فتنفع الأجسام، وإلا فالأرواح ذاتها مربيةٌ لها بقواها الحقيقية، فكيف تكون بحاجة إلى ما ربته هي.

فثبت مما سبق أن كل أسباب الراحة هذه أفادت البدنَ فحسب ولم تتجاوزه. البدن، وما أدراك ما البدن؟ مجموعة العناصر الأربعة، وعشٌّ مكون من النار والماء والهواء والتراب، فقل: كأنك بهذه الإيجادات من النار والماء نفعتَ النار والماء، وبلفظ آخر: أنك أخذت النار والماء من الخارج وأوصلتهما إلى النار والماء الموجودين في الداخل، وبقي للروح أن تصرف علمها وإدراكها في النار والماء الآفاقيين، وتمد هذه النارُ والماءُ الخارجيان النارَ والماءَ الموجودين في داخل البدن، أي لا تزال تخدم البدن دائما.

ومعنى هذا أن الروح التي كانت ألطف وأعلى من العناصر، وكانت تغلب عليها وتحكمها، جعلتَها أنت أيها الإنسان بحيلك وتدابيرك خادمة للجسم الكثيف، أو بعنوان آخر: جعلتَها عبدا للعناصر، حيث جعلتَ ألطف شيء تابعًا لأكثف شيء، وبتعبير آخر: أنت استعملت الروح اللطيفة نفسها لمحو لطافتها هي، وهذا قلب الموضوع.

فهذه الروح المسكينة مثلها كمثل مَلِكٍ عالمٍ فاضلٍ يتوقع منه شعبه وبلده منافع عظيمة، وعقدا على حسن سياسته

وكمال تدبيره آمالا كبيرة لرفع المستوى المعيشي لهما، ولكن على الرغم من علمه وفضله استحوذ على ذهنه وعقله عبد لئيم وشاطر، وبدأ يستغل المِلِكَ لأغراضه ومصالحه الذاتية، وأخذ يفكر في ملأ بطنه بقطع الرزق على أهل البلد، وأما الملك فشرع يلبي لجميع طلبات ورغبات ذلك العبد الشاطر اللئيم مخدوعا بكلامه المعسول الجذاب، ولم يجلس وزراؤه وأمراؤه مكتوفي الأيدي، وإنما هم أسدوا إليه كل ما يمكن لهم من نصائح، وبذلوا أقصى ما يمكن لهم من جهد لرد الملك إلى رشده، ولكنها باءت بالفشل أمام حيلة ومكر ذلك العبد اللئيم، بل وعلى عكس ذلك أنه جعل الملك يسيئ الظن بهم جميعا، واستطاع أن يسدَّ كلَّ منافذ الأخبار إلى الملك، ويجعلها لصالحه، فكأن زمام الحكم كان بيد الملك في الظاهر، ولكن في الحقيقة كان ذلك العبد يحكم البلاد في الباطن على أكتاف الملك، وبهذا أصبحت قضية الحكم معكوسة، فمن كان حاكما أصبح محكوما، ومن كان محكوما أصبح حاكما.

وكلنا نعلم أن دولةً إذا وُسِّد أمرها إلى أمثال ذلك العبد اللئيم، وطُرِدَ الأشراف منها، فإن الدولة كلها إلى ذهاب، وآثار الدمار إلى ظهور، وينتج عن ذلك أن الملك يُعزل عن سدة

عرش الدولة، وتسلب عنه ملوكيته وأمارته، وهنا ليعرف ماذا يفعل بعد هذا الانقلاب بذلك العبد اللئيم؟ فيشهد ضده كل من كان يعمل لصالحه من قبل، ويساعده في أغراضه الشخصية، ويسعون جهدَهم لهلاكه بعد تأكدهم من هلاكهم، فيتقرر بذلك كله أن ذلك العبد اللئيم يستحق الإعدام، ومن ثَمَّ لا يجد في المملكة مكانا يأويه، ومخبئاً يخبئه.

كذلك تماما اِفْهَمْ أن الروح مِلِكٌ عالِمٌ فاضلٌ، أُوْدِعَهُ ملكاتٍ طاهرةً للمحسوسات والمعقولات والوجدانيات، وهذه الروح لا تحكم عالَـــم البدن فحسب بهذه الملكات، بل تحكُمَ بها عالَـــم الكون كله، فالعقل رئيس وزرائها، والنقل[°] دستورها، ولكن هناك معهما خادم لئيم وشِرِّيرٌ، تُصْدَر بواسطته أحكامُ السلطنة في البلد، وينفِّذها الوزراء والمسؤولون، ألا ذلك الخادم اللئيم الشرِّير هو البدن، الذي هو مجموعة العناصر الأربعة، وصفناه باللئيم لأن أجزاءه التركيبية لا تشعر، ولا تعقل، ولا تعلم، ولا تميِّز الحسن من السيئ، ولُؤْمُه أن أي جزء يقترب منه بجهده، هو يعاديه ويقتله.

فمثلاً: مهما سجد إنسانٌ مدةً طويلةً لصنمٍ ثقيلٍ من الطين،

[°] المراد بالنقل هنا: كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

أو الحجر، وقرب منه قربا كثيرا، ولكنه إذا سقط من الفوق فأولُّ من يرضُّ رأسه هو عابده المقرب إليه، ولا يفكر هذا الصنم في أن هذا الإنسان عابده ومحبه، لا ينبغي لي أن أرضَّ رأسه، وإنما أتعامل مثل هذا التعامل مع الذين بعيدون عني ولا يؤمنون بعظمتي الألوهية.

وكذلك مهما يسجد إنسان لبحر مئات من السنين، ويُرَغِّم أنفَه أمامه، ويلتمس منه التماس العابد من معبوده، ولكن عندما يأتي سيلٌ من الفيضانات فأول من يغرقه هو هذا العابد المقرب إليه، ولا تمييز عنده بين من يعرفه، ومن لا يعرفه.

وكذلك مجوسي إذا استمر يعبد النار سنوات وسنوات، ولكنها لا تساعده عند الحريق، فأول من تحرقه هو هذا العابد المقرب إليه.

ومهما يتكلم عباد الهواء عنه، ويلهجون بالثناء عليه، ويكيلون المديح له، ولكن إذا هبت العاصفة فأول من تهلكه هو صاحبه، وبعده يأتي دور الآخرين.

انظر أن من عشق الماديات وأحبها أكثر هو الذي هلك بها أكثر، فالذين يعملون بالماكينات ليلَ نهارَ هم الذين يتعرضون لحوادثها أكثر، والذين يستعملون الطائرات أكثر ويقاربون إليها

هم الذين يموتون بها أكثر.

الذين يُرْكِعُون رُكَبَهم أمام الدريدنات وآلات الحرب الثقيلة الأخرى هم الذين يموتون بها أكثر. والغازات السامة، والمدافع، والبندقيات، والمسدسات، والرصاصات المغلَّفة، والبارود، يموت بهذه الأسلحة أكثرَ مَنْ مولَعٌ بها، ولا تلتفت هذه الأجهزة الفتاكة إلى أن هؤلاء الذين أوجدونا وخدمونا بالمجان، وضحوا علينا بإيماهم فضلا عن حياهم، فعلى الأقل لا نقتلهم ولا نعرضهم للخطر، بل نهلك فقط الذين لا علاقة لهم بنا، ولا يرغبون فينا.

فأي لؤم وأية سخافة لهذه الماديات يكون أكثر من أنها لا تُفَرِّق بين الصديق والعدو فحسب، بل إنها ألدُّ الأعداءِ لأصدقائها، وليس هذا فحسب، بل إنَّ مَنْ هو عدو لها هي تدعي راكعة على قدميه أنه صديقها، فطاعتها له ليست على علم وشعور، ولا على خُلُقٍ فضيلٍ، بل تحت ضغظ السيف والحديد والنار، ومن الواضح أن في عالَمِ الأخلاق لا يقال لطاعةٍ طاعةً إذا حصلت بالضغط والإكراه. فلما بلغت العناصرُ هذا القدرَ من السفالة واللآمة، فكيف يتوقع الخير من البدن المركَّب منها؟!! ومن ثَمَّ فأيُّ حرجٍ في اختيار لقب "اللئيم" لهذا البدن؟؟!.

عواقب الاستعمال السيئ لقوى الروح هي الحرمان والخسران

ثبت مما سبق أن هذا الخادم اللئيم (البدن) استخدم الروحَ على طريقته لهواه وشهواته الجامحة، وسعَّر نارَ الحرب بينه وبين العقلِ بعيدِ النظر، وأَلْقَى بدستور النقل (أي القرآن والسنة) في سلة المهملات والنسيان، وأَلْهَى الروحَ وشغَلَها عن أعمالها الحقيقية ومنافعها الثابتة واعدًا إياها بوعود معسولة بنيل الحظوظ النفسية، وتكميل المنافع العاجلة، فاغترت هذه الروح المغفَّلة بتلك الوعود المعسولة، وبدأت تسعى بقوتها الكمالاتية لتحصيل الحظوظ، التي ستستمتِع بها أصلاً تلك المادةُ العنصريةُ، وذلك الخادمُ اللئيمُ (البدنُ)، فنتج عن هذا كله أن البدن قد اكتسب شيئا ما، ولكن الروح مازالت صفر اليدين، بل كلُّ ما كانت الروح قد عقدتِ العزمَ على تحصيله أصبحت فيه أيضا محتاجةً إلى ذلك الخادم اللئيم، وتلك الروح التي كانت مستغنيةً بكونها نموذجًا للكمالات الربانية، و لم تكن محتاجةً إلى أحد، أصبحت محتاجةً إلى بدنها الذي لا يعقل، والذي كان محتاجا إليها من كل جهة وزاوية، وتلك الروح العملية التي كان بها وجودُ كلِّ وسائلِ العمل، أصبحت محتاجة إلى تلك الوسائل، والروح التي

كانت حينا مسجودَ الملائكة أصبحت اليوم عبدا للأسباب، وبدأت تسجد لعبيدها وإمائها، وأصبحت عبدا لتلك العناصر بحيث إنه لو لم تكن تلك الوسائل في يدها لتصبح هي عاجزةً ومعوَّقةً.

ففي الحالات السابقة أقامت الروحُ بقواها العلمية حضارةً للمنافع المادية، ولكنها فقدت كمالاتها الجوهرية التي كانت جزءا لها، والتي كانت تصحبها دائما، سواء كانت هي في المدينة أم في الغابة، وسواء كانت في خضم الأسباب أم بدون الأسباب، ولكنها تُرِي الناسَ كمالاتها الجوهرية، ولكنَّ هذه الروحَ الأَمَةَ ومُحِبَّةَ الحياةِ العبديةِ وصلت في حالتها الاحتياجية إلى حدٍّ أنها إذا كانت في المدينة التي تتوفر فيها الأجهزة الكهربائية ونظام توليد البخارات، فهنا هي تعمل عملها بكل كمال وإتقان، وتذيع الأنباء عبر الراديو، وتتصل بالأقارب عبر التليفون، وتوصل الصوتَ عبر التليغراف إلى أماكن بعيدة، وإذا كانت عندها كاميرة فيقوم بتصوير ما تريد، ولكنها إذا كانت في قرية لا توجد فيها هذه الوسائل المادية، أو كات في مدينةٍ انقطت الكهرباء فيها فجأة، أو قطع أحدُ الأعداء الأسلاك الكهربائية، فهنا تصبح هذه الروح عاجزةً وعاطلةً عن العمل كأي معوَّقٍ عاجزٍ بطَّالٍ.

وحاصل كل هذا أن هذه الروح بعد نقلها كمالاتها الأصليةَ والجوهريةَ إلى الحديد والنحاس أصبحت خالية وفقيرة ومحتاجة بحيث لا يكون للاحتياج والعبدية مثالٌ أسوأ منها، والحال أن الروح كانت جامعةً للشؤون الربانية، وحاملةً لقسط وافر للعلم والمعرفة، وخزينةً للّطافات والطاقات، كان من المفروض عليها أن تكون مستغنيةً وغيورًا بأن لا تكون محتاجة إلى إمائها وعبيدها، وموادِّها اللاشعورية والغير العاملة. لو نادت هذه الروح وهي في قرية لا كهرباء فيها، ولا غازات، لوصل صوتها من الشرق إلى الغرب، ولو شاءت أن تنتقل من مكان لا قطار فيه ولا سيارة وطائرة، لقطعت في دقائق مئات الآلاف من الأميال، ولو أرادت أن ترى وهي في زاوية مظلمة، فلا ترى العالَـــم كله فحسب، بل تُشاهِدُ كائنات العرش الأعظم، وزُوِيَت لها الأرض، وسُخِّر لها الهواء، وطُوِيَ لها الزمان، ولارتوائها وترقيتها لا تكون محتاجة إلى رَحم البحر وكرم النهر، بل يكون البحر نفسه محتاجا إلى إشارتها لأمواجه وحركاته. وفي ميادين الحروب وساحات القتال هي لا تكون محتاجة إلى الحديد والنار، بل كلّ ما وَضَعَتْ هي عليها يدَها تصبح سلاحا ناريا لها.

هذا كله يصير لأن هذه الآلات المادية والعنصرية كانت تستطيع أن تعمل بلطافتها أعمال تلك الطاقات، فالروح التي لم تكن جامعة لكل تلك اللطافات فحسب، بل هي كانت خزينةً عميقةً لِلَطافاتٍ أكثر وأكبر من لطافات المواد العنصرية، وبهذه اللطافات كانت لها مناسبة تامة مع الله مالك الملك الطاهر الذي لم يكن في أعماله محتاجا إلى وسائل، وإنما الوسائل ذاتها كانت محتاجة إليه لوجودها. فكان من الضروري أن يكون كذلك شأن هذه الروح الربانية[٦] أيضًا بأن لا تحتاج أبدا في أعمالها إلى هذه الوسائل المادية، وإلا:

فلماذا يصعد البرق إلى السماء في ثانية، والروح الذي يستطيع أن يسخره هو لا يستطيع أن يصعد بوصةً واحدةً إلى الفوق بدون هذا البرق (الكهرباء)!؟

ولماذا استطاع المحرك بطاقته النارية والمائية الداخلية أن يجعل المشرق والمغرب قرية واحدة، ولكن الإنسان الذي يستطيع أن يُوْدِعَ هذه المحركاتِ تلك الطاقةَ هو لا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة في هذه الحركات السريعة.

ولماذا تأتي الحركة البرقية للجهاز اللاسلكي والتليفون

[٦] أي الروح التي لها مناسبة مع الله الرب.

بالأخبار من آلاف الأميال في دقائق، والإنسان الذي يبعث في تلك الماكينات هذا الروح البرقي لا يستطيع أن يوصل بنفسه صوتَه إلى ميل واحد فقط؟!.

على كلٍّ، فإن أمكن للماديات أن تُظْهر بفضل الروح هذه العجائبَ، فكان من الممكن أن تُظهر الروحُ والروحانياتُ مثلَ تلك العجائبِ بل أفضل منها، ليظهر استغناءُ وغيرةُ هذه الروحِ الغيرِ المحتاجةِ ظهورا واضحا، وإلا فيصبح المستعير قويًّا، والمالك ضعيفًا بالكلية، والعبد حاكمًا، والملك محكومًا عاجزًا مكتوفَ الأيدي.

عجائب القوى الروحية المحيرة للعقول

لا تظنَّنَّ أن هذا من الخيال، أو هو نظرية علمية، بل الروح عند ما سارت على فطرتها فظهرت على يديها مثل هذه العجائب، واستخدَمَتِ المادةَ بروحانيتها استخداما كاملا.

فهذا عمر الفاروق الأعظم ﷺ نادى من على منبر المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة: "يا ساريةُ! الجبلَ"، ووَصَلَ

هذا النداءُ إلى جبال نهاوند في العراق[٧]، وما كان أحدٌ قد حَلَمَ آنذاك بالجهاز اللاسلكي.

وأذَّن إبراهيم عليه السلام بالحج واقفا على مقام إبراهيم، فوصل صوت هذا الأذان إلى آذان الأجنةِ في أرحام الأمهات، فضلا عن كل طرف من أطراف العالم[٨]، مع أنه لم يكن بواسطة مكبر الصوت.

وكان النبي ﷺ قد سمع صوتا لفتح باب جديد في السماء وهو جالس على الأرض[٩]، ومن المتأكد أن هذا الصوت لم

---

[٧] فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَال: وَجَّهَ عُمَرُ جَيْشًا، وَرَأَّسَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً يُدْعَى سَارِيَةَ، فَبَيْنَا عُمَرُ رضي الله عنه يَخْطُبُ جَعَل يُنَادِي: يَا سَارِيَةُ! الْجَبَل (ثَلاَثَ مَرَّاتٍ)، ثُمَّ قَدِمَ رَسُول الْجَيْشِ فَسَأَلَهُ عُمَرُ، فَقَال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! هُزِمْنَا فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعْنَا صَوْتًا يُنَادِي: يَا سَارِيَةُ! إِلَى الْجَبَل (ثَلاَثَ مَرَّاتٍ)، فَأَسْنَدْنَا ظُهُورَنَا إِلَى الْجَبَل فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَ الْمَدِينَةِ حَيْثُ كَانَ يَخْطُبُ عُمَرُ وَبَيْنَ مَكَانِ الْجَيْشِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ. أخرجه ابن عساكر في **تاريخ دمشق**، ج٢٠، ص٢٤. وانظر: **الإصابة في معرفة الصحابة** لابن حجر، ج١، ص٤١٠. وهو صحيح.

[٨] ففي **تفسير ابن كثير**، تحقيق محمود حسن، (بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ج٣، ص٢٦٤: وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي ناد في الناس بالحج، داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب! وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه. وقيل: على الحجر. وقيل: على الصفا. وقيل: على أبي قبيس. وقال: يا أيها الناس! إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة، لبيك اللهم لبيك" ثم قال ابن كثير: "وهذا مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف".

[٩] فقد روى الإمام مسلم في **صحيحه**، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، ج١، ص٥٥٤، رقم٨٠٦ =

يُسْمَعْ بواسطة آلةٍ برقيةٍ.

وقد سمع النبي ﷺ في الدنيا صوت سقوط حجر في قعر جهنم وصل إليه في سبعين سنة[10]، مع أنه لم تُستعمَل هناك أيةُ آلةٍ محسوسةٍ وماديةٍ لرفع الصوت.

وقد أخبر النبي ﷺ بعدد البعير والإماء التي جاء بها الحارث بن أبي ضرار فدية [لابنته جويرية زوجة النبي ﷺ][11]، قبل أن يخبر به الحارث، مع أنه ما أُوْجِدَت آنذاك تسهيلات لاسلكية لمعرفة أخبار الأسرار.

وأخبر النبي ﷺ بواسطة الوحي أن ما من شيء خرج من فم أحد من البشر إلا وهو حُفِظَ وسُجِّلَ، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن

= بسنده عن ابن عباس قال: "بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته".

[10] فقد روى الإمام مسلم في **صحيحه**، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، ج٤، ص٢١٨٤، رقم٢٨٤٤ بسنده عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا؟». قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها». وجبة أي سقطة.

[11] ما بين المعكوفين زيادة مني. و لم أجد هذه القصة بلفظ الشيخ، والذي وجدته هو أن الحارث بن أبي ضرار بن حبيب والد جويرية أم المؤمنين، جاء إلى المدينة ومعه فداء ابنته بعد أن أسرت وتزوجها رسول الله ﷺ، قال: فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل، فرغب في بعيرين منها، فغيَّبهما في شعب، ثم جاء فقال: يا محمد! هذا فداء ابنتي. فقال: «فأين البعيران اللذان غيَّبتهما بالعقيق؟» فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، والله! ما اطَّلع على ذلك إلا الله. انظر: ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج١، ص٥٧٩، رقم١٤٢٩.

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، مع أنه لم يكن هناك وجودٌ لجذب الأصوات بموجات برقية.

وقد عدَّ النبي ﷺ طاقات المسجد الأقصى ومحاريبه، رائيا إياه وهو جالس في الحرم المكي، ولم يأت في خيال أحد آنذاك لإيجاد مِجْهَر، (ميكْرُوسْكُوب Microscope).

وقصَّ النبي ﷺ عن الخطة الحربية في غزوة مؤتة ناظرا إليها وهو على منبر المسجد النبوي[١٢]، مع أنه لم يكن هناك أيُّ وجودٍ لمثل آلات إيصال الأخبار الآن.

وزيادةً على ذلك أنه ﷺ شاهد الجنة والنار في صلاة الخسوف في أودية العرب[١٣]، ورأى إبليس في عرفة يدعو بالويل والثبور[١٤]،

[١٢] ربما قصد الشيخ منه ما رواه الإمام البخاري عن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب –وعيناه تذرفان–، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم» **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، ج٤، ص١٥٥٤، رقم٤٠١٤.

[١٣] روى الشيخان بسنديهما عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: أتيت عائشة زوج النبي ﷺ حين خسفت الشمس، فإذا الناس قيام يصلون، وإذا هي قائمة تصلي، فقلت ما للناس؟ فأشارت بيدها نحو السماء، وقالت: سبحان الله، فقلت: آية؟ فأشارت أي نعم، فقمت حتى تجلاني الغشي، وجعلت أصب فوق رأسي ماء، فلما انصرف رسول الله ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار ...» = **صحيح البخاري**، كتاب الوضوء، باب من لم يتوضأ إلا من الغشي المثقل، ج١، ص٧٩، رقم١٨٢؛ و**صحيح مسلم**، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، ج٢، ص٦٢٤، رقم٩٠٥.

[١٤] رواه ابن ماجه وغيره من طريق عبد الله بن كنانة بن عباس بن مرداس السلمي، أن أباه =

وشاهد في غزوة بدر فوجا للملائكة المسومين، وفي ليلة مظلمة رأى الحقائق الغيبية أي نزول الآلام، مع أنه لم تكن هناك ماكينة للزجاج المادي لتقريب البعيد.

وطار سليمان عليه السلام على عرشه في الفضاء، وهبت الرياح على إشارة يديه، ولم يكن آنذاك أي تصور لطراز الطائرات الآن.

وقد قطع النبي ﷺ في لحاتٍ مسافة السماوات السبع، فضلا عن قطع مسافة الفضاء السمائي فقط، ولم تكن هناك وسيلة لطائرة بترولية، ولا خيال لها في أي ذهن من الأذهان، وحتى إذا كانت طائرة فأية علاقة لها بسفر السماء؟

هذه وآلاف من أمثالها من الواقعات مسجلة في بطون التاريخ، يعرف بها أن مالكي القوى الروحانية ما صاروا عبيدا للعناصر المادية يوما ما، بل هذه الماديات نفسها عملت على

= أخبره، عن أبيه، أن النبي ﷺ دعا لأمته عشية عرفة بالمغفرة، فأجيب إني قد غفرت لهم ماخلا الظالم؛ فإني آخذ للمظلوم منه، قال: «أي رب! إن شئت أعطيت المظلوم من الجنة، وغفرت للظالم»، فلم يجب عشيته، فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء، فأجيب إلى ما سأل، قال: فضحك رسول الله ﷺ أو قال: تبسم، فقال له أبو بكر وعمر: بأبي أنت وأمي! إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها، فما الذي أضحكك أضحك الله سنك؟ قال: «إن عدو الله إبليس لما علم أن الله عز وجل قد استجاب دعائي وغفر لأمتي أخذ التراب، فجعل يحثوه على رأسه، ويدعو بالويل والثبور، فأضحكني ما رأيت من جزعه». **سنن ابن ماجه**، ج٢، ص١٠٠٢، رقم٣٠١٣؛ **ومسند أحمد بن حنبل**، ج٤، ص١٤، رقم١٦٢٥٢؛ **وشعب الإيمان للبيهقي**، ج١، ص٣٠٤، رقم٣٤٦ قال البوصيري: "في إسناده عبد الله بن كنانة قال البخاري: "لم يصح حديثه". ولم أر من تكلم فيه بجرح ولا توثيق".

إيماء الروحانيات، وجعلت نفسها عبيدا لها.

الخلاصة أن شأن الروح هو الاستغناء، بحيث إنها بعد علاقتها مع منبع الوجود ذات الحق تعالى ومحافظتها على مناسبتها ومماثلتها معه لا تكون في أي عمل من أعمالها محتاجة إلى الماديات التي هي أقل درجة منها بكثير، كما هو مقتضى لطافتها الفطرية، وقُدِّمتْ لها عدةُ أمثلةٍ في معجزات الأنبياء عليهم السلام وكرامات الأولياء وخوارق عاداتهم، التي ما استُعِيْنَ فيها بالماديات أبدا، وإنما تلك مظاهر للروحانيات المحضة التي ركعت فيها الماديةُ أمام الروحانية.

التصرف المادي ليس بكمال حقيقي

لقد اتضح من هذه النماذج الثابتة للقوة الروحانية، وتلك الأمثلة الصادقة للخوارق، أن الكمال الأصلي لروحٍ صاحبةِ كمالٍ يكمن -في الحقيقة- في استغنائها عن المادية، وتحرُّرِها عن قبضة الوسائل المادية، وإلا فأيُّ تصرُّفٍ للروح في الماديات بواسطة المادة ليس كمالاً خاصًّا، ولا عملاً ممتازًا.

لا شك في أن مادةً تتصرَّف في مادةٍ بدون واسطة الروح، فمثلاً: الغبار يردم البحرَ في قرونٍ بذَرْوِ الرياحِ وتطييرها إياه

إليه. والماء الجاري يجعل في الأرض اليابسة المنخفضة مجاري جديدة له، ثم يحوِّلها بحرا، وكذلك يجعل البحر برا بالطريقة نفسها. ويجعل البركانُ الفضاءَ نارا. ويجفِّف الهواءُ الأحواضَ والمستنقعاتِ بهبوبه المتكرر عليها. فإن كان التصرف في المادة كمالاً فتفعل القُوَى الماديةُ أيضا ذلك الكمالَ بدون أيِّ توسُّطٍ للروحانية فيها.

فإن كانت إنسانية الإنسان أفضل من العناصر بدرجات، بل من المؤكد أنها كذلك؛ وإن كان الإنسان أعلى وأشرف نوع في المواليد الثلاثة للعناصر، ولا شك في أنه كذلك؛ فلا يكون كماله الذي يمتاز به أو يفتخر به هو ذلك الشيء الذي يصدر عن أشياء أرذل منه، خاصة إذا كانت تصرفات الروح تلك بواسطة هذه الماديات أيضا، كأن الروح غير قادرة على تلك التصرفات بدون تلك الوساطة، إن كان الأمر هكذا فهذا ليس عدم كمالية للروح فقط، بل هو عيب مكشوف فيها بمعنى أنها أصبحت محتاجة إلى أشياء أرذل منها، وتبحث عن كمالها في تلك الأشياء الأرذل؛ لأن أصلَ عيبٍ في كاملٍ هو استكماله بالغير الذي هو أرذل من ذلك الكامل، وأما استكمال الشيء بالأفضل منه فهو خيرُ فنٍّ؛ لأن كون الشيء ذا كمال بنفسه،

وعدم استكماله بالغير هذا شأن ذاتٍ واحدةٍ فحسب، ألا وهي ذات الحق تعالى المباركة، التي هي متزهة من كلِّ عيبٍ، ومنبعُ ومخزنُ كلِّ كمالٍ. لا يمكن للمخلوق أن يكون متزها من كل عيب، وإذا فرضناه متزها من كل عيب فهو لا يخلو من عيب المخلوقية، التي حقيقتها عَدْمٌ أصليٌّ، فلما ثبت أن المخلوق من حيث الذات عدمٌ، من الضروري أن يكون خاليا من الكمال أيضا من حيث الذات؛ لأن العدم منبع كل العيوب والنقائص، ومن البيِّن أن المعيوب لا يصير كاملا إلا برجوعه إلى الذاتِ منبعِ الوجودِ (أيْ الله تعالى) واستكماله به، تلك الذات التي هي مخزنٌ لجميع الكمالات، ومبرأة من كل العيوب، لا أن يركن لتحصيل الكمالات إلى أرذل منه؛ لأن المادية ليست للإنسان ما يتشرف به ويفتخر به؛ لأن ماديته هي نفس مادية الحمار والثور.

فاتضح من البيان السابق أن الإنسان إذا رجع لنيل الكمال إلى البدن أو المادية التي هي مجموعة العناصر فكأنه طلب الكمال من النار والماء والهواء والتراب، فهذا ليس باستكمال وإنما هو إزالة للكمال، وتحصيل للنقص؛ لأن هذا احتياج وعبدية للأرذل منه، كأن السلاطين أصبحوا عبيدا للعبيد، وهذا في حد ذاته أسوأ عيب يستحى منه.

فإن كانت حقيقة العلم الحديث مجردَ أن يقدر الإنسان على التصرفات بالمادة في المواد؛ فلم يخرج الإنسان في هذه الصورة من عُشِّه الْمَبْنِيِّ من النار والماء خروجًا يقال به: إنه نال الإنسانية الحقيقية، بل يثبت أنه إنسان ناقص ومعيوب بعيبٍ أَخْجَلَ فوق التصور، وإلا فلا يثبت له على الأقل فضلٌ تظهر به ميزةٌ للإنسانية.

أصل الاحتياج في الإنسان هو المادة

لو كان في المادة قليل من الاستغناء لكان بإمكان الإنسان أن يحصل له استغناء من عبدية المادة، ولكن لما كانت الصفة الذاتية والأصلية للمادة هي الاحتياج والتبعية، فكأنَّ المجبورية هي ما تمتاز به المادة، فبدلا من أن يحصل لها الاستغناء من عبوديتها، يفني الاستغناء الحاصل أيضا، وهو لا يزال يتوحَّل في المجبورية التي هي أصل كل الذلة والهوان، فاستسلام الروح الجوهر المستغني للمادة المجبورة هو بمنزلة خنق ما تمتاز به الروح من شأن الاستغناء.

أخلاق العناصر الأربعة وخصائصها الاحتياجية

بقي علينا الآن معرفة سبب: لماذا هذه العناصر الأربعة

محتاجة؟ ومن أين جاءت فيها هذه المحتاجية؟

فمن الواضح أن خيريَّةَ شيءٍ وشرِّيَّتَه تنبعث من أخلاقه الطبيعية، وأخلاق العناصر الأربعة الطبيعية والجِبلِّية هي احتياج وعبدية، لذلك كلما تكون علاقة النفس الإنسانية بالمادة والماديات تكون محتاجيتها وعبديتها على قدرها؛ لأن نشأة النفس الأمارة للإنسان وتركيبتها من هذه العناصر الأربعة، مما تؤدي بالإنسان إلى السفلية والدونية والدناءة والمحتاجية، التي تهدي إليها العناصر الأربعة هداية صامتة، ولولا غُلِّبَ على الإنسانية نورُ الروحانية أو لولا أوت الإنسانية إلى روحانيتها لَمَا بغت هذه العناصر الأربعة أن تخرج الإنسانية من أوحال الاحتياج والعجز، بسبب كون طينة المادة وجبلَّتها الاحتياجَ والعجزَ.

التراب وأخلاقه الجبلية

فخذ التراب أولا وتأمَّل في: ما خاصيته الجبلية والأساسية؟

من الواضح أن الخاصية المحسوسة للتراب هي التسفُّل والدونية، وخاصيته المعنوية والأخلاقية هي القبض والبخل، لذلك إذا وُضِعَ شيءٌ في الأرض فتضمُّه إلى نفسها وتريد أن

تهضمه، ولا تعطيك إياه إلا بعد أن تشق صدرها وتستخرجه منها أنت بنفسك، لا ندري كم من خزائن لبني آدم ودفائن كنوزٍ لهم خبأتها الأرض في بطن حرصها وشحها!! إذا شققت بطنها واستخرجتها منها فبها ونعمت، وإلا فلا تخبرك الأرض بأني خبأت كذا وكذا من الخزائن والدفائن، ولا تعطيك إياها أيضا بنفسها، وكذلك لا تظنَّنَّ بخضرة الأرض ونضارتها أنها صاحبة جودٍ وسخاءٍ وفيرين، فتجعل الواحدَ مائةً، وتجود علينا بمزارعها وحقولها الخضراء، وذلك لأن البذرة التي زرعتَها في الأرض هي بِذْرَتُك أنت، ليس للأرض فيها دخلٌ أيما دخلٍ، وإذا قلت: إنها حُصِلَ عليها من الأرض؟ فنقول: إنها أيضا جاءت من بذرة أخرى زُرِعَت فيها، لا أن الأرض أوجدتها.

فتبين من هذا كله أن أول زراعةٍ عُمِلَت في الدنيا كانت ببذرةٍ جيء بها من خارج الأرض، لا أن الأرض أوجدتها، فالحبة لك أنت لا للأرض، فلذلك لم تكن بدايةُ الجود والسخاء من الأرض، وإنما من الإنسان نفسه. وبعد إلقاء الحبة في الأرض، هناك عمليةُ حفظِها وإنمائِها وحصادِها وتصفيتِها، كل هذه الأعمال تقوم بها أنت لا الأرض، وإذا ما سُقِيَتْ تلك الحبَّةُ فلا تحفظها الأرض ولا تنميها، بل تأكلها، فسقيُ البذرة

بالماء في الحقيقة حفظٌ لتلك البذرة، وإنماءٌ لها، واستلالُ بذرةٍ أخرى منها، كأن الماء آلة لاستلال بذرة أخرى منها بعد إنماء أصلها، فثبت أن الأرض ما أوجدت البذرة، ولا قامت بإنمائها، بل أنت الذي أرسلت إليها جيش الماء وأكرهتَها به على إعطائها رأس المال مع الفائض (Interest)، فثبت من هذا أن الأرض مازالت باقية على خاصيتها وهي القبض والبخل.

ولما كانت هذه المادةُ القابضةُ والبخيلةُ جزءًا أعظمَ للإنسان، حتى قيل فيه إنه: قبضةٌ ترابيةٌ، جاء فيه طبيعيا ذلك الخلق: القبض والبخل، فيولد الولدُ ويصيح للقبض والبخل أي للأخذ والهضم، لا للإعطاء والترك، أيُّ شيء وضعتَه أمام الولد فهو يرفعه ثم يذهب به طبيعيا إلى فمه، ليقبضه ويهضمه، وإذا استمررتَ في إعطائك للولد ما يأكله يصمت، وإذا سلبته منه يصيح ويبكي.

فلا يميل طبعه إلى السخاء والإيثار جبليا بل إلى القبض والبخل؛ لأن القبض والبخل هما الخلقان الغالبان على هذا العنصر الطيني، ومن الظاهر أن القبض والبخل اللذين منشأهما الحرص والطمع يخلقان فيه المحتاجية والعبودية، لا الغنى والاستغناء؛ لأن البخل أولا يحتاج إلى الشيء الذي ظهر فيه البخل، ثم إلى مالكِه، ثم إلى إعطاء المالك إياه الذي بواسطته

يملكه، فإن لم يكن الْمُعْطِي والْمُعْطَى والإعطاء، فهذا البخيل يكون محتاجا بدرجة أنه لا يستطيع أن يُظهِر بخله أيضا إظهارا كاملا، فالبخيل قبل أن يأخذ شيئا يحتاج إلى المعطي، ثم يحتاج إلى ذلك الشيء بحيث إنه لا يقدر على أن يُبعِد قلبَه عنه، فظهر أن البخيل أولُه احتياج وعبدية، وآخرُه احتياج وعبدية، ولما كان هذا الوصف وصفا امتيازيا للأرض، لذلك احتياجُها وذلتُها أكثر من احتياج وذلة العناصر كلها، فيبقى هذا الإنسان الطيني -مادام طينيا- جبليًّا أسيرًا لرذيلة البخل، التي كلها احتياج وذلة، وإن أصبح السخاءُ والإيثارُ حِرفتَه بدلا من القبض والبخل فثمرته هي الاستغناء الذي كله العزُّ والمحبوبيةُ، والذي ليس فيه مكان للاحتياج إلى الغير والعبودية له، بل هو الذي يستخدِم الغيرَ ويُعبِّده لنفسه.

النار وأخلاقها الجبلية

وهكذا النار، جبلتها وخاصيتها الطبيعية هي الترفُّع والتعلِّي، لا تطأطئ رأسها، وإذا كبسناها لمصلحة راجحة لا تنكبس، كأن النار ضد التراب، فهو بكل جسده تسفُّلٌ وتدَنِّيٌّ، وهي بقمَّة رأسها وأخمص قدميها ترفُّعٌ وتعلِّيٌّ، وبالحجة نفسها

رفض الشيطان أن يسجد لآدم قائلا: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

ومن الواضح أن الإنسان قد وُضِعَ في خميرته قسطٌ وافرٌ من النار، وكفى بحرارة جسمه وحُمَّى جسده أحيانا دليلا عليه، لذلك أولُّ ما تظهر عليه جبليا بعد بلوغ رشده، نزعةُ الترفُّع والتعلِّي، والفخر والأنانية، التي هي أثر ناري أصلا، لذلك عندما يصبح الإنسان مغلوبًا بالتعلي والأنانية تسري فيه موجة الغيظ والغضب، وتنتفخ أوداجه، ويتحمَّر وجهُه حمرةَ النار، فيقال حينئذ في المثل: إن فلانا أصبح شعلةً من النار، أو اشتعلت في الفلان نارُ الغضب، ولا يقال: إن فلانا طفق ماءُ الغضب يجرى فيه، أو بدأ تراب الغيظ ينهال عليه، بل صيرورتُه طينًا يُعَدُّ علامةً لبرودته؛ لأن التراب في الحقيقة ضد النار.

على كل حال، فإن هذا الترفع والتعلي والأنانية في الإنسان في الحقيقة هو الخلق الناري، ولكن مع ذلك إذا تأملنا فنجد أن هذا الخُلُقَ كلَّه احتياجٌ وذلَّةٌ؛ لأن حاصلَ تعلِّي الإنسان وترفُّعه محاولةٌ منه لصيرورته كبيرا على الآخرين، أو إبراز نفسه في أعينهم كبيرا، أو إيحائه في أذهانهم بأنه كبير، فتبين من هذا أن الترفع في الحقيقة متوقف على وجود الآخرين، وعلى خيالهم،

مما يعني أنه إذا لم يكن أولئك الناس الآخرون، أو لم يلتفت خيالهم إلى أنه كبير، أو مال عنه، فتنهدم تلك العمارة التي بناها لكبره، فلا تكون المحتاجية أكثر من أن يكون العِزّة لنا، وتكون في يد الآخرين، وتكون الرفعة لنا، وتجري في مجرى خيالات الآخرين، مما يعني أنها لم يكتب لها القرار في يد الآخرين أيضا.

لذلك لا بد للترفع والتعلي من قناعات الناس به وتخليقه نفسه بخلق أفضل معا، كيلا تتغير آراء الناس فيه، ولا تخفُّ مكانة هذا المترفِّع في أعينهم، فالخُلُق الذي يجعل إنساناً واحداً محتاجا إلى آلاف من البشر، فلا خُلُقَ أذل وأكثر احتياجا منه؟ ولكن في مقابله خُلُقٌ آخر، وهو خُلُقُ التواضع الذي حقيقته: "انقيادُ شخصٍ وتذلُّلُـــه لأحدٍ بإرادته وبدون إكراهٍ وإلزام"، مما يعني أنه ليس في حاجة إلى معرفة رأي الناس فيه، فمهما تكون آراؤهم فيه فلتكن، ولكنه على أصله الذي لا يتغير ولايتبدل بتبدل آرائهم ونظراتهم فيه.

فتبين مما سبق أن حاصل التواضع هو الاستغناء، وحاصل الترفع هو الاحتياج والعبودية، وأيضا تذلُّلُ عالي المرتبة تواضعًا لأحد بمحض الإرادة دليل الاعتماد على النفس، بأنه كان يريد أن يرتفع عن ناريته، ونحن نجعله خاضعا بناءًا على ترابيته، ومما

لا يخفى على أحد أن قدرة الإنسان على نفسه والتمكن منها دليل المالكية، التي تنافي المحتاجية؛ لأن المحتاجية من خواص المملوكية لا من خواص المالكية. ومن جانبٍ آخرَ يتولَّد بالفخر والترفع احتياج وعبدية.

الغرض أن الإنسان إذا ما بقي سجينا في قفص النار يجعله هذا الخلق الناري محتاجا وذليلا؛ لأن خاصية الاحتياج ذلة ومسكنة، فالحاصل أن النار أيضا تولِّد الاحتياج، لا الغنى.

الهواء وأخلاقه الجبلية

إن الهواء خاصيته الانتشار والتوسع والعموم، يوجد في كل مكان، يدخل في كل منفذ، ويملأ كل فراغ، الغرض ما من ذرة في العالم إلا وهي عارفة له ومتعلقة به.

ومن المعروف أن الإنسان يوجدُ فيه جزءٌ من الهواء أيضا، يعرف ذلك بالرياح والتنفس وغيرهما، لذلك يريد هذا الإنسان أيضا أن يوجد في كل مكان، ويدخل في كل منفذ، ويكون له حضورٌ في كل زمان ومكان، ولكن لما لا تستطيع نفسه المادية أن تمد رواقها على كل شيء بحيث توجد في كل مكان، لذلك يريد هذا الإنسان أن يطير صيته، ويشتهر اسمه بين الناس بحيث

أن يذكروه في كل مكان، وبهذه الطريقة يتمكن هذا الإنسان من وجوده في كل مكان تأسيا بعنصره الهواء.

فتبين أن خُلُق هوى الإنسان للشهرة أثرٌ لذلك الجزء الهوائي فيه، وإذا تأمَّلتَ فيه فتصل إلى أن حاصلَ خُلُقِ حب الشهرة هو احتياجٌ، بل عدة احتياجات؛ إذ لا يتم هوى الإنسان هذا إلا بأن يكون هناك: ناس آخرون، ثم أن يعرفوه، ثم أن يُشهِروا أمره في كل مكان، وأن يذيعوه على جناح الريح.

فحاصل هذا الخلق أيضا هو نفس الحاصل السابق، وهو الاحتياج إلى الأغيار، فخلق حب الشهرة أيضا ليس خلقا معِزًّا له، بل هو طبعٌ مهينٌ له، يعلِّق مقاصده على الغير، خلافاً لضده الذي يقال له الإخفاء والتستر، الذي حقيقته هي فرحته في نفسه، واستغناؤه عن الغير، مع أن ثمرة الشهرة الإلهية التي تترتب على هذا الاستغناء تكون أثبت بكثير من تلك الشهرة الجبلية المصنوعة؛ فظهر أن حاصل خلق الهواء أيضا هو الاحتياج، والهيام على وجهه في كل مكان ومنفذ.

الماء وأخلاقه الجبلية

وهكذا الماء أيضا لأن فعله الطبيعي هو عدم الكف وعدم

الضبط، أي لا يعتمد الماء على نفسه، فلا يستطيع أن يكف نفسه بنفسه، إلا أن تُقامَ في الجوانب الأربعة سدودٌ فينسدّ، ولكن إذا ما انكسر السدّ، أو الإناء فسال وانتشر هنا وهناك. كذلك هو يجري مستقيما كأنه معتمد على نفسه، ولكن إذا وجد منخفضا يمينا أو يسارا جرى معه ويغير مجراه. وإذا حفر شخصٌ في الأرض قليلا فترك الماءُ مكانَه واستقرَّ في هذه الحفرة. ولما كان في خميرة الإنسان أيضا الماء، كما هو واضح من وجود البصاق واللعاب والبلغم والبول والعرق وغيرها فيه، لذلك لا يوجد في الإنسان أيضا أثر لضبط النفس جبليا، رأى شيئا جميلا لرجل شهق له. وقع بصره على زوجة لأحد حدَّق فيها. رأى شيئا مقبول الصورة تبعه. رأى عمارة جميلة فبدأ ينظر إليها بنظرات طامعة، ليتها تكون له.

فتكسُّر الإنسان وتشتُّته عند مواجهة أيِّ تنزُّلٍ أو انخفاضٍ في حياته، جاءه من عنصره المائي، وحاصله هو نفس ذلك الاحتياج والعجز؛ فعدمُ تملُّكِه ناصيةَ نفسِه عند رؤيته غيرَه مضاهيا له في عمله أو علمه، وفقْدُه صوابَه ورشدَه عند ذلك، دليلٌ على عجزِه وعدمِ قدرته، والعجز أصل الاحتياج. وأما ضبط النفس وتملكها عند رؤية الأشياء الجميلة والاستغناء عنها،

وصون النفس من السقوط عليها، هذا كله دليل قدرته، وحاصله هو ذلك الاستغناء. فثبت من هذا البيان أن خاصية الماء الطبيعية أيضا هي الاحتياج والعبودية.

أربعة أصول لرذائل النفس

ثبت مما قلنا في السابق أن لهذه الأخلاق المادية أو للرذائل أربعة أصول: القبض والبخل، التعلي والترفع، الشهرة والانتشار، وعدم ضبط النفس أي الحرص وهوى النفس، التي تجعل الإنسان محتاجا في كله.

أربعة أصول لفضائل النفس

إذا عرفنا أصول رذائل النفس، فعرفنا تلقائيا أن أصول فضائل النفس تكون ضدها، فضد القبض والبخل هو السخاء والإيثار، وضد الكبر والتعلي هو التواضع والانكسار، وضد الشهرة والسمعة هو الإخفاء والتستر، وضد الحرص والسقوط هو ضبط النفس والقناعة.

ولما كانت هذه الأضداد الأربعة أضدادا لأخلاق المادة الأربعة، فهي لا تكون أخلاقًا ماديةً، بل هي تُعَدُّ أخلاقا

روحانية للروح التي هي ضد المادة، وهكذا إذا خرجت من جوهر المادة أربعة أصول لرذائل النفس، فخرجت كذلك من جوهر الروح أربعة أصول لفضائل النفس.

عدم إمكانية ظهور الأخلاق بدون الأفعال

ولكن من الحقائق الواضحة أيضا أن الآثار الجبلية للأخلاق لا تظهر إلا بالأفعال، فإذا لم تصدر أفعالٌ مناسِبَةٌ لتلك الأخلاق فلا يمكن أن تظهر الآثار الطبيعية لتلك الأخلاق، فمثلا لا تظهر آثار خُلُق الشجاعة إلا بعد فعل المقابلة والمقاتلة، وكذلك آثار السخاء لا تبرز إلا بفعل العطاء، وآثار التواضع لا تظهر إلا بالخضوع أمام المخضوع له، وهكذا كل الأخلاق، لذلك من الضروري أن لا تظهر آثارُ محتاجيةِ الأخلاقِ الماديةِ، وآثارُ استغناءِ الأخلاقِ الروحانيةِ، إلا بصدور أفعال مناسبة لكل منهما، فهنا سؤال يطرح نفسه، وهو: ما هي الأفعال التي تظهر بها آثار الأخلاق المادية والأخلاق الروحانية؟

مظهر الأخلاق المادية هو الإمساك بالشيء

كلما تأملنا في آثار الأخلاق المادية فما وجدنا حاصلها غير

الأثرة، والمطْلَبية، سواء أكان البخل أم الحرص، حب الشهرة أم التعلي، أساس كل هذا هو هوى النفس الذي يريد أن كلَّ ما في الدنيا من مال وجاه لا يكون إلا له فقط، كأن مقتضى الأخلاق النفسية أن يمنع كل شيء عن غيره ويجعله خاصًّا لنفسه فقط، ففي القبض والبخل يمنع مقبوضه عن الغير، وفي التعلي والترفع يتظاهر بأن كل كمال له وليس لغيره شيء، وفي الشهرة والسمعة لا يذكر إلا اسمه، لا غيره.

ففي هذه الأخلاق التي ذكرناها منعٌ لها عن الأغيار، وتخصيص لها بنفسه، فتبين أن الفعل الذي يبرز الآثار الطبيعية لهذه الأخلاق هو الإمساك بالشيء على قدر مشترك بينها، ففي البخل والحرص يكون هذا الإمساك ماليا، وفي التعلي والترفع يكون هذا الإمساك جاهيًّا، فظهر أن مظهر حب الجاه وحب المال هو الإمساك بهما، كأن الآثار الطبيعية لهذه الأخلاق من الأثرة والمحتاجية لا تبرز إلا بفعل الإمساك.

مظهر الأخلاق الروحانية هو الإنفاق

ولما كانت الأخلاق الروحانية ضدَّ الأخلاق المادية من كل ناحية، لذلك يلزم أن تكون آثارها الطبيعية أيضاً ضد آثار

الأخلاق المادية، وكذلك الأفعال التي تُبْرِز تلك الآثارَ تكون ضدَّ أفعالها أيضا. وكذلك تماما لما كان أثرُ الأخلاقِ الماديةِ الأثرةَ، يكون كذلك أثرُ الأخلاقِ الروحانيةِ الإيثارَ، فسواء أكان الإيثار والتواضع أم الإخفاء والقناعة، ليس واحدٌ من هذه الأخلاق مبنيًّا على هوى النفسِ الْمُغْرِضِ الذي يريد أن تكون الأشياء كلها له فقط، لا لغيره، بل يكون مبنيا على أن يَتْرَك حقَّه الواجبَ أيضا للآخرين، ففي السخاوة يعطي لغيره ما يملكه، وفي القناعة تُتْرَك ممتلكاتُ الآخرين لهم، وفي التواضع يُضحِّي الإنسان بعزَّتِه للآخرين، وفي الإخفاء يُترَك الميدانُ بأكمله لعزة الآخرين.

عرفنا أن أساس جميع هذه الأخلاق الروحانية ليس على المنع أو السلب، بل على العطاء والوهب، فاتضح من هذا أن الفعل الذي يبرز آثار هذه الأخلاق الروحانية لا يكون فعلَ الإمساك أبداً، وإنما يكون ضده وهو فعل الإنفاق، ففي السخاوة والقناعة يكون هذا الإنفاق ماليا، وفي التواضع والإخفاء جاهيا، ولكن سواء أكان الاستغناء ماليا أو جاهيا لا يبرز بدون فعل الإنفاق، ومن المشاهَد أن الاستغناء المالي والجاهي للإنسانِ يغنيه عن الغير في جانب، ويُثَبِّتُ الغنى في نفسه في جانب آخر، الأمر الذي تتولَّد به فيه رحابةُ الصدر

وسعتُه طبيعيا، فلذلك يظهر أثر هذه الأخلاق الروحانية في صورة رحابة الصدر والاستغناء والوقار والثقة بالنفس وعدم الاحتياج، التي وسيلة ظهورها هي الإنفاق.

وهذا الإنفاق هو الذي يسمى في اصطلاح الشرع الصدقة، التي معناها في الحقيقة هو إنفاق وإعطاء الروح والمال والعِرْض والقول والعمل لمالك الملك، ثم لما تُتْرَك في الصدقة محبوباتُ النفس ولذائذُ الطبع الذي هو شاق على النفس، لذا يسمى أيضا باسم آخر وهو المجاهدة.

فخلاصة الأمر أن الإمساك الطبيعي يأتي بالاحتياج والضيق، ولا يذهب ذلك الإمساك، ولا يحلُّ الاستغناءُ محلَّه، إلا بواسطة الصدقة والمجاهدة والإنفاق في سبيل الله، فدرجة الإنفاق التي تقع في مقابل الإمساك تذهب على قدرها من النفسِ الإنسانيةِ المحتاجيةُ والعبديةُ، وتتحقق مراتب الاستغناء؛ لأن بالإنفاق تضمحل وتضعف تلك الأخلاق المادية التي كانت تظهر بها أفعالُ الإمساك.

كيف يمكن أن يحصل الغنى بالصدقة؟

عندما يتصدق إنسان فيُبعِد عن نفسه مالَه المحبوب، فهو

بذلك يقطع أساس القبض والبخل الذي كان خُلُقًا ترابيًّا، وإلا فكيف يُبعَد ذلك المتاع مع غلبة البخل؟ وكلما تضعف رذيلة القبض والبخل التي هي أساس الاحتياج، كلما تقوى على قدرِ ضعفِ تلك الرذيلةِ ملكةُ السخاء والإيثار التي هي ذريعة الاستغناء، وبهذا أدرك ذلك الإنسان المتصدق المقامة الأولى للاستغناء.

وحينما يشعر هذا المتصدق بلذة العطاء والتصدق، فمن الظاهر حينئذ أنه لا ينظر إلى أشياء الآخرين طمعا وحرصا، ولا يتهافت عليها، بل لا معنى عطائه وتصدقه إلا أنه راغب في إرضاء النفس بأقل ما يمكن، وهذا الذي يسمى "القناعة". فبهذه الصدقة والإنفاق قُضِيَ أيضا على خُلُق الحرص الذي هو خلق مائي، ونال به المقامة الثانية للاستغناء.

والفرق بين مقامتي الاستغناء هو أنَّ في المقامة الأولى قطعًا لحبه ممتلكاته الذي كان أساس البخل، وفي المقامة الثانية ذهابًا لحبه ممتلكات الآخرين الذي هو أصل الحرص، وهكذا فك الإنسان نفسه في باب المال من عبدية نفسه، وعبدية غيره. ولما تصدق الإنسان بماله سِرًّا وإخفاءً، لا يقال: إنه فعل ذلك رغبةً في الشهرة والسمعة، وإلا فما احتاج إلى الإخفاء، وبهذا قُطِعَ

أساسُ حبٍّ الشهرة والسمعة الذي كان خُلُقا هوائيا، وبقطع أساس هذه المحتاجية العظيمة التي سبق تفصيلها حصلت للإنسان المقامة الأخرى الثالثة للاستغناء.

ومن الظاهر أيضا أن المتصدق لا يسعى لإخفاء عمله هذا إلا إذا رأى أن عمله هذا أقل قيمة من عمل الآخرين، ولا يجد في نظره أي علو وتفوُّق لعمله هذا في مقابل أعمال الآخرين، وإلا فبدلا من أن يخفي عمله يقدِّمه ويعلِّيه على أعمال الآخرين، ويحبُّ أن يشهره في كل مكان، ولكنه عندما امتنع من إجراء المقارنة بين صدقته وصدقات الآخرين، فتبين منه أنه تبرَّأ من خيالِ تفوُّقِ عملِه وتعلِّيه، وهكذا هو أعلن براءته من إعلاء شأنه ورفع ذاته على الآخرين، وبهذا الإخفاء قُطِعَ أصلُ التعلي والترفع الذي هو خلق ناري، وبهذا فاز الإنسان بالمقامة الأخرى الرابعة للاستغناء.

ومن المعلوم أيضا أن المبالغة في إخفاء عمل الخير مطلوبة في الشريعة الإسلامية، بحيث لا تعلم شماله ما تنفق يمينه؟ ومن أعطاه؟ كأنه أخفى عن نفسه هو أيضًا، وهذا يعني أن ضميره أيضا لا يحس بأي فخر ونخوة، وهذا لا يفعله إلا من لا يرى أيَّ قدرٍ وقيمةٍ لعمله الحسن من حيث إنه عمله، لا في مقابل أعمال

الآخرين، وهو بهذا كأنه لا يتخيل في نفسه أنه أعلى وأرفع من الآخرين، بل يفعله فقط أداءً للواجب، لا أداءً للحق، وبهذا الإخفاء التام للصدقة استؤْصل حب الذات والعجب بالنفس، الذي يحصل به للمتصدق على أدقِّ وأهمِّ مقامةٍ للاستغناء.

والمقامتان الأُوْلَيان للاستغناء تصونان الإنسان من احتياجاته للمال، والمقامات الثلاث الأخيرة تحرِّره من احتياجاته للجاه، والفرق بين هذه المقامات الثلاث هو أن المتصدق بعد وصوله إلى المقامة الأولى لا يكون طالبا للجاه، وفي المقامة الثانية لا يبقى كاسبا للجاه، وفي المقامة الثالثة لا يمسي متخيلا للجاه. وهكذا – بتحرير الإنسانِ نفسَه بواسطة هذه المقامات الخمس من الاحتياجات والقيود التي كانت قد ألقته في حضيض الذلة والصغار – يصبح الإنسان غنيا عن الغير، ومستغنيا عن نفسه أيضا.

الاستغناء عن الماديات أساس التعلق مع الله تعالى

محصل الكلام أنَّ الخلقين الرذيلين لهذه النفس المادية: البخل والحرص، كانا قد ذهبا بمجرد الصدقة، وأن الأخلاقَ الرذيلةَ الثلاثةَ: التعلي والشهرة والعجب بالنفس، كانت قد ذهبت بإخفاء الصدقة، ومن الواضح أن الإنسان إذا لم يبق بخيلا، بل

أصبح سخيًّا، فهذا يعني أنه غير مبالٍ ولا مكترثٍ بأموال الآخرين، وغير محب للشهرة أيضا، بل أصبح محبا لعزة النفس، أي أنه لا يبالي بمدحٍ وذمٍّ الآخرين أيضا، ولم يبق أنانيًّا ومعجبا بنفسه، بل أصبح إنسانا حقيقيا، أي لا يكترث بنفسه أيضا، ونتيجته الظاهرة أنه بأخلاقه الروحانية التي حصل عليها بالصدقة لم يبق عبدا لأحد في العالَـــم، وحصلت له الحرية الكاملة من كل شيء فيه، وكلنا نعلم أن الذي استغنى عن العالم كله فلا تنشأ علاقته مع أحد غير الله خالق الكون، الذي ضحّى لأجله بماله وكرامته ونفسه، وتخلّق بأخلاقه، ففي هذه الحالة إذا نشأت له علاقة فمع الله الغني عن العالمين، وإذا تولدت له صلة فمع تلك الذات الغنية، التي ليست محتاجة في أعمالها إلى أحد، بل كل شيء محتاج لوجوده وظهوره إلى مدده تعالى وعونه.

لا تظهر الأعاجيب الروحانية وخوارق العادات إلا بقوة التعلق مع الله تعالى

وفي هذه الحالة، من الضروري أن يَظهَرُ الغنى الكاملُ من هذا الإنسانِ المتصدِّقِ والعبدِ المجاهدِ وتاركِ ما سوى الله، الذي أوجَدَ نسبتَه مع ذلك الغني المطلق، ولا يحتاج في أي عمل من

أعماله إلى الوسائل المخلوقاتية، بل هذه الوسائل نفسها أخذت ترمق إلى إشارات عينيه، وبدأت تصل تصرفاته –لا إلى الأرض فقط– بل إلى السماء أيضا بدون وسائل مادية، فإذا ذهب إلى الأعلى فلا يحتاج إلى طائرات، وإذا قطع مسافات أرضية فلا يحتاج إلى قطارات وسيارات، وإذا أوصل صوتَه إلى العالَــم فلا يحتاج إلى هواء وبرق، وإذا أراد أن يسمع نداءات العالَــم فلا يحتاج إلى راديوهات وتليفونات.

الغرض أن يَظهَر على يديه ما لم يستطع جميعُ فلاسفةِ العالَــم وعلماءِ العلم الحديث أن يُظْهِروه مجتمعين، وإن لم يكن هذا فعلى الأقل يحصل له الغنى بحيث أن لا يَرَى تلك الوسائلَ مؤثِّرَةً حقيقيَّةً، علمًا واعتقادًا، ولا يُبْقِي أيَّ شغفٍ وصِلَةٍ بتلك الأسباب والوسائل عملاً، بل يأخذ بتلك الأسباب والوسائل على سبيل العادة ولمحض الوسيلة ومعتقدا بأنه أمر إلهي، فالدرجة الأولى[١٥] هي المقام الأعلى للتوكل والغنى، التي يُشْعَرُ فيها بالقدرة الكاملة على ترك الأسباب. والدرجة الثانية[١٦] ثانوية لا تتحقق فيها القدرة ولكن تكون المعرفة الصحيحة، ولا يبقى الغلوُّ والانهماكُ في اختيار الأسباب.

[١٥] وهي: أن يَظهَر على يديه ما لم يستطع جميعُ فلاسفةِ ...

[١٦] وهي: إن لم يكن هذا فعلى الأقل يحصل له الغنى ...

تبين أن المادة لا تُوْجِدُ غيرَ الاحتياج وذلة النفس؛ لأنهما من خواص وأخلاق المادة، وهما يظهران بفعل الإمساك، وأما الروح فلا تُوجِد غيرَ عزة النفس؛ لأن طبيعة أخلاقها الفطرية هي الغنى والاستغناء، وهي منشأ العزة والعظمة، وهي تظهر بفعل الإنفاق الذي يقال له "الصدقة".

ربما توصلتم بما سبق إلى أن العلاقة بين الأخلاق المادية والروحانية، ونوعيتهما، وخواصهما، وآثارهما، هي علاقة تضادٍّ وتناقضٍ؛ لأن بين الروح والمادة تضادًّا وتناقضًا، فالروح لطيفة ربانية، والمادة كثيفة ظلمانية، وتلك مائلة إلى العلو وهذه مائلة إلى السفل، وتلك تجعل الإنسانَ عرشيًا وهذه تجعله فرشيًّا، وتلك ترفع رأسه وهذه تُخَفِّضه، كأن الروح والمادة كفَّتان لميزان، إذا خَفَّضْتَ إحداهما ترتفع الأخرى، لذلك كلما تُقَوِّي الأخلاقَ الماديةَ بتلك التصرفاتِ الماديةِ تضمحلُّ الأخلاق الروحانية على قدر قوة الأخلاق المادية، وعلى قدره ينمحي استغناء النفس، وتتقوى سلاسلُ الاحتياج وذلة النفس.

وبتعبير آخر: أن الروحَ الملِكَ الفاضلَ إذا عاش تحت أثر الجسم اللئيم والعبد الفاقد الشعور، يهلك عزة حكمه وشوكة ملوكيته، وفي آخر الأمر يحيط الهلاك بالروح والمادة معا من كل

جانب. ولكنا إذا طفقنا نقوِّي الأخلاق الروحانية بالصدقة والمجاهدة أي بالاستغناء عن الماديات واللذات المادية فينمحي الاحتياج والعبدية، وعلى قدر هذا الانمحاء يترسخ أصل كمال الاستغناء، فتقوم حكومة الروحانية على عالَـــم البدن، ويقف البدن الخادم كلَّ آنٍ لخدمة الروح وتنفيذ أوامرها، وبهذا يقوم كلاهما بأعمالهما، ويحتفظان بعزتهما وكرامتهما على قدرهما، ويستقيم عدل الروح في إقليمها.

لا يمكن أن يولِّد العلمُ الحديثُ المجرَّدُ هذا الغنى

ولما ثبت أن موضوع العلم الحديث ومجال عمله هو التصرفات المادية التي ثمرتها هي الاحتياج وذلة النفس، وأن موضوع الإسلام ومجال عمله هو التصرفات الروحانية أي الصدقة والمجاهدة التي يحصل بها الاستغناء وتواضع النفس، فنتج عن ذلك تلقائيا أن العلم الحديث يذهب بالإنسان إلى الذلة والهلاك، والإسلام يذهب به أخيرًا إلى العزة وفلاح الدارين.

الصورة الأولى -أي الغلو في الماديات والمبالغة في العلم الحديث- هي دَوْسُ الروح وغلبة المادة، التي يعز بها الذليل، ويذل بها العزيز، وهذا قلب الموضوع، وموجبٌ لهلاكهما.

والصورة الثانية -أي الاشتغال بالروحانيات والشغف بالإسلام- هي رفع الروح ومحكومية المادة، التي يتبوأ بها العزيزُ مقعده من العز، والذليل يبقى على مقعده من الذلة والمقهورية، وهذا هو عين العدل، وموجب لفلاحهما ونجاحهما في الدرين.

وهذه هي الخطة الإجمالية للعلوم والإسلام، التي تقدمت بها إليكم على قدر علمي، وهذا هو المقصد الأول من المقاصد الثلاثة لهذا الخطاب.

العلاقة بين العلوم والإسلام كالعلاقة بين الوسيلة والمقصود

تأمَّلُوا الآن في أن البدنَ المكوَّنَ من العناصر الأربعة مجردُ هيكلٍ، حياتُه بالروح، والروح تُظْهِرُ علومَها وكمالاتها بواسطة هذا البدن الحي بها، فالبدن وسيلةٌ لظهور كمالات الروح، ولما تصلُ الروح بعد فراغها من العمل المقرَّر لها إلى المقام المعلوم الذي كان مقرَّرًا لها منذ الأزل، هُنَا يُفْصَل هذا الهيكلُ والوسيلةُ عن الروح.

فالجسم في الحقيقة ليس بفاعل، وإنما هو قابلٌ محضٌ، وليس بأصل وإنما وسيلة، فإذا أعطي هذا الجسم درجة المقصودية بالذات والاستقلال، فكأن الجثة جُعِلت مقصودةً، ومصير الجثة

ليس سوى التعفن والتفسخ وتلويث الأدمغة، ولما كان موضوعُ العلومِ هذه الجثةَ والأشياءَ الماديَّةَ، التي مصيرها الفساد والتعفن، فانحلَّ تلقائيا أن أعمال العلوم كلها ليس لها قيمةٌ أكثر من قيمة الوسائل، ولما كان موضوعُ الإسلامِ -بالأصالة- الروحانيةَ والأفعالَ الروحانية، والروح أصلٌ، اتضح أتوماتيكيًّا أن جميع أمور الإسلام لا تنزل عن درجة المقصودية بالذات في أي حال من الأحوال.

فبعد ضمِّ هاتين الصورتين بعضهما إلى البعض نتج أن البدن كما هو وسيلة لعمل الروح كذلك العلومُ وسيلةٌ وذريعةٌ وهيكلٌ لأعمال الإسلام، التي حياتُها وروحُها هي الأخلاقُ الإسلامية والأفكارُ الإسلامية والأقوالُ الإسلامية والأفعالُ الإسلامية، فإن لم توجد هذه الروح في الهيكل فتصبح العلوم وتشكيلاتها جثَّةً لا يكون مصيرها إلا انتفاخًا وتفسُّخًا، وتشتيتًا للأدمغة الصحيحة والقلوب الصادقة، وتلويثًا للفضاء النقي الصافي.

فالعلوم التي حاصلها رغادة العيش المحضة واستعمال خزائن العناصر الأربعة بلا روح دينية، والذي يقال له في الاصطلاح "حياة الدنيا"، وجثة بلا روح، جثَّةٌ ترابية هامدة بعد أن بهرت العيونَ ببريقها وزينتها أياما معدودات، يحبها ويتهافت عليها

الذين هم عميٌ عن الحقيقة، يقول الله تعالى: ﴿اِعْلَمُوْٓا اَنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَّ لَهْوٌ وَّ زِيْنَةٌ وَّ تَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِى الْاَمْوَالِ وَ الْاَوْلَادِؕ كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهٗ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرٰىهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُوْنُ حُطَامًاؕ﴾ [الحديد: ٢٠].

والعيش الرغد غير الضروري أو العيش الرغد المحض وجمع الوسائل اسمه في الإسلام هو "الدنيا"، وعاشِقُها يقال له: "أحمق"، قال النبي ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له»[١٧].

فاتضح حسًّا وعقلاً ونقلاً أن الجسمَ والمادةَ كما هو وسيلةُ عملٍ للروح، لا مقصودا أصليا، كذلك التصرفات المادية التي اسمها "العلوم" يمكن أن تكون مجردَ وسيلةٍ وذريعةٍ للتصرفات الروحانية التي اسمها "الإسلام"، ولن تصبح مقصودة بالذات.

ومن الظاهر أن العلوم لما كانت من الوسائل، والوسيلة إنما تختار لأن المقصود محتاج إليها كما تقول القاعدة العقلية، وتختار كذلك بقدر حاجة المقصود إليها أيضا، وإلا فالانهماك في الوسائل أصالةً إضفاءُ شأن المقصودية عليها، وهذا قلب

[١٧] رواه أحمد في **مسنده**، ج٦، ص٧١، رقم٢٤٤٦٤. قال الهيثمي في **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، ج١١، ص١٩٦، رقم١٨٠٧٨: "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة".

الموضوع وخلاف العقل.

لذا اتضح عقلا أيضا أن الانهماك في العلوم بعيدا عن المقصود الأصلي "الدين" لا يُعَدُّ فعلا عقلانيا، بل اختيارها وسيلةً وعلى قدر الضرورة يعدُّ فعلا عاقلا. ولذلك أُذِنَ للتحصيل من دنيا العلوم وتصرفات مجموع العناصر الأربعة على لسان النبي ﷺ ما تحتاج إليه المقاصد الدينية، حيث يقول ﷺ: «اعمل للدنيا بمقدار بقائك فيها، واعمل للآخرة بمقدار بقائك فيها»[١٨].

خلاصة الكلام أن درجة "العلوم" لا تتعدى حدَّ الوسيلة؛ لأن معمولها الأصلي هو المادة، وهي وسيلة محضة للروح، ودرجة الإسلام لا تنزل عن المقصودية؛ لأن معموله الأصلي هو الروح، وهي أصلٌ مقصودٌ للمادة.

فاتضح من البيان السابق أن "العلاقة بين العلوم والإسلام" هي علاقة الوسيلة مع المقصود، التي كانت مقصودا ثانيا

[١٨] لم أجده مرفوعا إلى النبي ﷺ، وإنما أخرجه أبو نعيم في **حلية الأولياء**، ج٧، ص٥٦ وصيةً لسفيان الثوري لأحد، فقال: حدثنا أبو أحمد، ثنا أحمد بن محمد بن الحسن، ثنا عبد الله بن خبيق، ثنا عبد الرحمن بن أبي عبد الرحمن بن عبد الله البصري قال: "قال رجل لسفيان: أوصني. قال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك فيها، والسلام". وروى ابن أبي الدنيا في **الزهد**، ج١، ص٤٧٧، رقم٤٧٥ **وذم الدنيا**، ص٧٩، رقم٣٨٦ فقال: حدثني علي بن الحسن بن أبي مريم، عن الحسين بن زياد المروزي، قال: قال معدان: "اعمل للدنيا على قدر مكثك فيها، واعمل للآخرة على قدر مكثك فيها".

لموضوع هذه المحاضرة، والتي حاصلها أن "العلوم" إذا استخدمت كوسائل للمذهب فمهما بلغت أوج الترقي والتقدم يكون مصيرها مبشِّرًا بالخير، وإذا استخدمت كمقاصد أي تترك الروحانية وتحل محلها المادية فمهما كانت قليلة يكون مصيرها منذرا بالشر والخطر.

ماذا تقتضي منا حقائق العلوم والإسلام؟

لذلك يجب علينا أن نعرف مجال تقدمنا ورقينا، هل هو العلوم أم الإسلام؟ فيحكم فيه أيضا نفسُ ذلك العقل الذي قرر أن أحدهما وسيلة والآخر مقصد، وهو الذي يقرر أن نترقى في الوسائل أم في المقاصد؟ ونتسابق للطريق أم للمنزل؟

فلما ثبت بشهادة العقل والنقل أن العلوم وسيلة، فبشهادة العقل أيضا لا يمكن أن يجعل العلوم -مطلقًا- ميدانا للترقي والتقدم؛ لأنها طريق محض، لا مقصود أصلي. وإن كان الإسلام مقصودا أصليا، وهو كذلك بالتأكيد كما ثبت بالعقل والنقل، فهو الذي يُجْعَل ميدانا للجري والترقي؛ لأنه ليس طريقا محضا، وإنما هو مدينة مطلوبة، بُذِلَت الجهود كلها لأجل الوصول إليها، لذلك لم يوقف القرآن رقي الإنسان، بل أرسل الله

الإنسانَ إلى الدنيا لتعميرها وترقيتها، ولكنه سَمَّى الترقيَّ في الوسائل تضييعًا للوقت، والترقي في المقاصد -الذي عنونه بالخيرات والبركات- لم يُبِحْهُ فحسب، بل أوجبه علينا وألزمنا به. يقول تعالى في موضع: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨]. وقال في موضع آخر: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

ففي موضعٍ حُرِّضَ المسلمون على الترقي والتقدم بعنوان السباق فيما بينهم، وفي موضعٍ آخرَ بعنوان التنافس، ولكن يجب أن يكون هذا الترقي في الميدان الذي ينبغي أن يكون فطرةً، أي المقاصد؛ لأن الترقي في الوسائل ليس ترقيًّا وإنما هو حماقةٌ وبلاهةٌ.

فبالنظر إلى هذه القاعدة الأصولية تعال ألق النظر على نفسك، فتجد أنك قلبت الموضوع قلبًا جعلَ المقصودَ وسيلةً، والوسيلةَ مقصودًا، والمِلِكَ عبدًا، والعبدَ ملِكًا، والإسلام تابعًا اسميًّا رسميًّا، والعلومَ مقصودًا حقيقيًّا ومطلبًا رئيسًا، ومع ذلك انظر إلى مصيره السيئ أيضا؛ لأن في هذه الحالات المقلوبة سوف تُرْدِيك هذه المادةُ اللئيمةُ في الحفرة العميقة للحرمان والخسران، كما فعلت مع الأمم حتى الآن.

وقد قال نذير الله المبين ﷺ متوجِّسا وخائفا من تلك

البهرجة المادية وزينتها المزخرفة التي سميت في الشريعة "زينة وزهرة": «والله ما أخشى عليكم الفقر، ولكن مما أخشى عليكم من بعدي زهرة الدنيا تفتح عليكم فتهلككم كما أهلكتهم»[١٩].

أضرار الماديات المحضة

إن أضرار الماديات ترسِّخ قدمها في ميدان العلم أولاً، فتُفْسِدَ على الناس اعتقادَهم، ثم تحتلُّ ميدان العمل، فتقضيَ على عزيمة الناس للعمل، في ميدان العمل بحيث إن الماديات نفسها لا شعور لها؛ فلا يملك واحد من العناصر الأربعة النار والماء والهواء والتراب شعورا، وإلا فلا يكون مسخَّرًا بيد الإنسان، فالاشتغال بألعاب هذه الجهالة ليل نهار لا يتقدم بك إلا إلى الجهالة

ثم لما كانت هذه الماديات أنواعا للمحسوسات لذا لا

[١٩] لم أجده بلفظ الشيخ. وروي فيه عدة أحاديث، منها: حديث عمرو بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «... فو الله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم» رواه الإمام البخاري في **صحيحه**، كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، ج٣، ص١١٥٢، رقم٢٩٨٨؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الزهد والرقائق، بدون باب، ج٤، ص٢٢٧٣، رقم٢٩٦١؛ والترمذي في **سننه**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب رقم٢٨، ج٤، ص٦٤٠، رقم٢٤٦٢. ومنها حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «أخوف ما أخاف عليكم، ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا» قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض ... » رواه الإمام مسلم في **صحيحه**، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، ج٢، ص٧٢٧، رقم١٠٥٢.

يستطيع المولعُ بها وأسيرُها الإنسانُ أن يصل إلا إلى أعماق الحس فحسب وأسراره، وإلى ما يتعلق بالحواس الخمس: العين، والأنف، والأذن وغيرها، لذلك عبَّاد العيون والأذن لا يدورون إلا ما تشاهده العيون والأذن، ولا يستطيعون أن يصلوا إلى علوم القلوب، وعلوم الأرواح، وعلوم الحقائق أبدا، ومن الواضح جدا أن العلم الذي لا يعرف عنه الإنسان شيئا، ويتوجه إليه مع ذلك، فلا يكون مبلغ طيرانه إلا أوهاما وخيالات وشكوكا وشبهات، ولا يكون علوما ومعارف أبدا، لذلك تَحْدِق بالإنسان المادي الشكوكُ والشبهاتُ في الميادين الروحانية، التي هي في الحقيقة ثمرةٌ بسيطةٌ للانهماك في الماديات، وليس علاجُه إلا أن يرجع إلى الروحانيات التي هي منشأ العلوم والإدراكات، ويُشعَل في القلب مشعلُ العلم الذي تبتعد به ظلمات هذه الأوهام والوساوس.

موعظة لطلبة الجامعات

إن المسلمين عامة، وطلبة الجامعات خاصة، يحملون عقليةً حداثيةً خاليةً عن تلك الأنوار العرفانية مطلقا، التي كانت تمثِّل ترياقًا للشكوك والشبهات، وجُنَّةً للوساوس والأوهام، مما رسَّخ

الريبَ والارتيابَ والتحيرَ في القلوب، وجعلها أجنبيةً عن الحقيقة الأصلية، وإذا لم تدخل في القلوب أنوارُ الإيمان الشفافة التي كانت تنقشع بها ظلمات الجهل، وتندفع بها الشبهات الناشئة عنها، وتصبح بها تجليات مشاهدة الحق جوابا عن كل سؤال، فلا فائدة في مراودة القلوب ودغدغتها بالتعبيرات العلمية المحضة. وإيجادات العلم التي تريدون سماعها في مثل هذه الخطب الرنانة هذا ليس وقته، وإنما وقته حين يكون رأس مال العلم الأصلي باليد، أما هنا فلا خبر للإيمان، ولا رائحة للروحانية، فكيف الوصول إلى العمل؟!

طرق دفع الأضرار المادية

لذلك أنا أشير عليكم، بل لست أشير، وإنما حقيقة الإسلام أيضًا تقتضي منكم أن تتركوا تزيينات الظاهر هذه وتلميعاته، وتضميداته تلك وترقيعاته، وتُنَقُّوا من تلك المادة ذلك الفساد الذي أوجده فيها الانهماك الزائد والغلو المفرط في العلوم المادية، وسقاه علم الفلسفة الذي هو جهلٌ في الحقيقة، ففي هذه الحالات والظروف يجب عليكم أن تبرزوا الروح بدلا من الجسم، التي هي منبع العلوم في الإنسان، الذي حلقته الأولى أن

يبتعد عن هوى النفس والشهوات المادية، ويرجع إلى منبع الجود والكمال ذات الحق تعالى، الذي تأتي منه أضواء العلم والمعرفة، وتُضَيِّق على الشكوك والوساوس مداخلها ومنافذها.

استحكام التوحيد ورسوخه

استحكام التوحيد ورسوخه، وبلفظ آخر: تركُ تعدُّدِ المطالب والشرك، واختيار الاستقامةِ على التوحيد، الذي هو روح الإسلام وأصل الأصول، وطريقته أن يُذْكر الله مرات وكرات، ليقع وقْعُه على القلب ويترسخ التوحيد. يقول النبي ﷺ: «جدِّدوا إيمانَكم بقول لا إله إلا الله»[٢٠].

ولا تَصَوَّرْ في "لا إله إلا الله" توحيد الذات فحسب، بل تخَيَّلْ في هذه الكلمة أيضًا التوحيدَ (المطلق الذي يشمل توحيد

[٢٠] أخرجه أحمد في **مسنده**، ج٢، ص٣٥٩، رقم٨٦٩٥؛ وعبد بن حميد في **منتخبه**، ص٤١٧، رقم١٤٢٤؛ وابن الأعرابي في **معجمه**، ج٣، ص١٠٩، رقم١١٠٨؛ ومحمد بن نصر المروزي في **تعظيم قدر الصلاة**، ج٢، ص٧٨٧، رقم٧٩٩؛ وأبو نعيم في **الحلية**، ج٢، ص٣٥٧؛ والحاكم في **المستدرك**، ج٤، ص٢٨٥، رقم٧٦٥٧ بأسانيدهم عن صدقة بن موسى، ثنا محمد بن واسع، عن شتير [أو سمير] بن نهار العبدي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «جددوا إيمانكم». قالوا: يا رسول الله! وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «أكثروا من قول لا إله إلا الله». قال المنذري في **الترغيب والترهيب**، ج٢، ص٢٦٨، رقم٢٣٥٢: "رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن". وقال الهيثمي في **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، ج١، ص٥٨، رقم١٥٩: "إسناده جيد، وفيه سمير بن نهار وثقه ابن حبان". وقال الحاكم: "صحيح الإسناد". وخالفه الذهبي فقال: "صدقة ضعيف".

الذات والصفات معًا) أي كما اكتسبتَ بهذه الكلمة توحيدَ الذات، كذلك حاوِلْ أن تكتسِبْ بها توحيد أسماء الله المائة[٢١] أو صفاته المائة أيضًا، كأن إثبات الألوهية ونفيها كامنان في تركيبة كلمة التوحيد، فيُثْبَت ويُنْفى أيضا الرحمانية والنافعية والضارِّية وغيرها هكذا: لا رحمن إلا الله، لا مالك إلا الله، لا نافع إلا الله، لا ملك إلا الله، وغيرها.

فلمَّا يستقرُّ في الذهن أن المالك أيضا هو الواحد، والنافع أيضا هو الواحد، والضار أيضا هو الواحد، تظهر ثمرته تلقائيا، وهي أن تذهب من قلبه عظماتٌ أخرى، وتبقى فيه فقط عظمة الذات الواحدة، وهذه الوحدة والوجهة الواحدة هي قوة القلب، ومن الواضح أن عبدا واحداً لا يستطيع أن يُرْضي سيدين له في وقت واحد، هو دائمًا يكون مشتت البال، متفكر الخاطر، متردد الفؤاد، ومذبذب العقل، مما يُحْدِث في قلبه ضعفًا، ولكن الإنسان الذي يؤمن بأن سيده واحد فقط، وهو مالك الكل على الإطلاق، وبيده كل شيء، وهو متصرف فيه،

[٢١] قلت: ولله تسعة وتسعون اسما، وليس مائة كما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري في **صحيحه**، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد، ج٥، ص٢٣٥٤، رقم٦٠٤٧ عن أبي هريرة رواية قال: «لله تسعة وتسعون اسما مائة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».

فهو لا يكون مترددا بل يصبح متيقنا ومطمئنا، وهذا اليقين والطمأنينة أساس قوة القلب، تتركز بها قوّتُه الفكريةُ على مركز واحد، وتظهر بعد ذلك على يديه أعاجيب الفكر وغرائب العلوم، وتزيد في بصيرته ومعرفته.

وبهذه القوة اليقينية صدر ما صدر من الصحابة الكرام والسلف العظام من أعمال محيرة للعقول، وتحيَّر بها العالَـــم المتمدن حتى يومنا هذا، ولم يكن تقدمهم المدهش وأفعالهم الطوفانية رهينة بالغنى المالي، ولا بالغنى العقاري، بل الغنى ذاته كان يأتي بتلك الأفعال ويذهب، لذلك صحِّحوا اعتقادَكم في التوحيد الذي هو أساس كل خير وكمال.

ذكر الله وطريقته الابتدائية السهلة

وهذه الفكرة التوحيدية لا تترسخ في القلب ولا تثبت إلا بطمأنينته، وإلا فلا تدَعُك الوساوسُ والتشويشاتُ الفكريةُ أن تبقى على هذه الحقيقة الصافية النقية، ولذلك وصف القرآن الكريم وَصْفَةً لإحداث الطمأنينة في القلب، قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

المقصود بالذكر في الآية هو الذكر القلبي، وهو لا يترسخ في القلب إلا بتكريره باللسان مرات ومرات، كما يكرر الطالب درسه باللسان ليحفظه في صدره، لذا اجْعَلِ اللسانَ ذاكرًا أولا، فيصير القلب ذاكرًا ثانيًا، ويتجذر هذا الإيمان والتوحيد في القلب، ويطمئن عليه الفؤاد ويقتنع.

ولذلك ذكرت الشريعة الإسلامية عدة صور لذكر الله تعالى، ولكن للأسف الشديد لا استعمال لها في هذه الأيام، وحتى لا يعلمها المسلمون عامة، والطبقة المثقفة منهم خاصة، فأولا فرضت الشريعة علينا فرائضَ، وهي أكبر مَظهرٍ لذكر الله، فرضها على كل مسلم، فالتزموا بأداء الفراض من الصوم والصلاة وغيرهما، وكذلك وضعت الشريعة في مختلف المناسبات والمواقع أورادًا تتضمن ذكر الله، فبنطقها يجري على اللسان ذكر الله تلقائيا، مثلا: بِسْمِ الله، الْحَمْدُ لِلَّهِ، جَزَاكَ اللهُ، إِنَّا لِلَّهِ وإنا إليه راجعون، مَا شَاءَ اللهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، سُبْحَانَ اللهِ، وغيرها من الأوراد التي تلهجون بها ليل نهار، فإن استعملتموها فيحصل لكم الاستغناء عن لغات الأغيار، وما من عمل من أعمال حياتكم التي لها علاقة بالكلام إلا وفي تعبيراته اسم الله، كأن العائش في المجتمع الإسلامي مدفوع بنفسه إلى

ذكر الله تعالى بدون قصد وإرادة، ولكن مسلم اليوم لا يبالي بلغته الدينية التي كان الله يوفقه بها لذكره كل وقت بالإرادة وبدون الإرادة، هو بصدد محوها، مع أن الإسلام كان قد أكد تأكيدا بالغا للمحافظة على اللغة العربية وتعبيراتها؛ لأن للُّغة أثرًا في صنع الثقافة والحضارة، وعامة أحوال الحياة، لذلك في بداية الاحتلال الإنجليزي للهند وجَّه علماء الهند عامة، وعلماء دارالعلوم ديوبند خاصةَ، المسلمين إلى أن لا يُعِيْروا –مع المحافظة على عربيتهم– للغة الغير وترويجها وإشاعتها اهتماما كبيرا بحيث تصبح هي قلبتهم الأولى ومقصودهم الأصلي، ولكن المسلمين آنذاك ما سمعوا نداء أولئك العلماء المتبصِّرين، وما أصغوا إليه، ونتيجةً لذلك هم تعرضوا لسوء عاقبته، من أنهم تغيروا صورةً وسلوكاً في مجتمعاتهم التمدنية والحضارية، ولم يبق عندهم من الإسلام شيء، فضلا عن بقاء عملهم الديني على صبغته الأصلية.

ولكن التوبة والرجوع إلى الرشد ليس له وقت مخصوص، فتوبوا وارجعوا إلى ذكر الله، وإن لم يمكن لكم أن تلتزموا اليوم بذكر الله التزاما تاما، فعلى الأقل اسعوا للحفاظ على اللغة العربية من حيث إنها لغة، واحفظوا تعبيراتها الدينية، ليجري بذلك على ألسنتكم ذكر الله، النطق باسم الله ولو كان بدون

إرادة، ولكنه يترك أثرا له في القلب.

صحبة الصالحين والتعلق مع أهل الله

ولكن التوفيق لهذه الأمور لا يتنسَّى إلا أن تُجْمَعَ معها أسبابُ التوفيق، وأكثر الأسباب تأثيرا هو مصاحبة الصادقين ومرافقتهم، لذلك قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

لذلك، الجاهلُ المصاحِبُ لأهل الله يفهم مقاصدَ الدين أكثر من العالم غير المصاحب، ويصطبغ بالصبغة الدينية، ويصبح متبعا للدين، لذلك أنا أنصحكم بأن تجعلوا الصلة مع أهل العلم والربانيين مقصدا أصليا لحياتكم؛ إذ لا يثلج الصدرُ بالاستدلال فقط، ولا تقر العين باليقين العقلي فحسب.

ولله در الشاعر الهندي "أكبر" يقول (ما ترجمته):

لا يجــد الفلسفيُّ اللهَ في بحثه وحــــجته
يبحث عن رأس الحبل المتشابك ولا يجده

ثم يقول في حصول اليقين وتدبير الدين (ما ترجمته):

لا يأتي الدين بالكتب والمواعيظ والذهب
وإنما يــأتي الدين بنظر الربانيين الصائب

لذلك أنا ألتمس منكم أيها الإخوة الأعزاء! أن لا تبتعدوا عن أهل الله، بل أحدثوا صورًا وفرصًا للربط بهم، ليحصل لكم الدين واليقين، وتذهب عنكم الشكوك والشبهات، وإلا فلا تصلح النفوس بمثل هذه الخطب الرنانة ولا سيما في مثل هذه المسائل الكلية التي تشتمل على حقائق علمية، وإنما تصلح النفوس عندما تكون القلوب معمورة بذوق اليقين، ولا تصطبغ بصبغة الدين إلا بقوة العمل وصحبة الصلحاء، لذا أوجبوا على أنفسكم ألا تنسوا الروحانيات في خضم الماديات.

خلاصة الكلام

اتضح من الكلام السابق حقيقة الإسلام وغرضه وغايته، أي أنه بحثِّه الإنسانَ على السعي في ميدان الروحانية يريد أن يوصل الإنسان في الرفعة والعزة والطمأنينة والبشاشة إلى أوجها الدائم، وإلى قمَّتها الشامخة، وذلك لأن الرفعة والعزة الدائمتين ليستا إلا في الروحانية. وتبين من البيان السابق حقيقة العلوم وغرضها وغايتها أيضا أي أنها بتشغيل الإنسان في الميادين المادية تدفعه إلى قعر الذلة والخسران، وذلك لأن مصير الماديات المحضة هو الفناء والهوان، وفي آخر الأمر لا يستطيع الإنسان المغرور

بالعلم الحديث أن يحافظ على منافعه المادية، ولا أن ينال منافعه الروحانية أيضا، واتضح كذلك النسبة بين العلوم والإسلام، وهي أن بينهما نسبة الوسيلة والمقصود، التي حاصلها أنه لا يكون مصيرها مبشرا بالخير، إلا إذا كان أفعال العلوم خادمة للمذهب، وذريعة للحصول عليه.

واتضح أيضا أن الإسلام لما كان مقصودا بالذات، والعلوم وسيلة له، تقتضي مقصودية الإسلام أن يُجْعَل الإسلامُ ميدانا للترقي والتقدم، لا العلوم؛ لأن الترقي يكون في المقاصد لا في الوسائل والذرائع، أيْ تُخْتَار معمولات العلوم على قدر حاجة الإسلام إليها فقط، لا أكثر.

الربط بين مباحث الخطاب وحديث العنوان[٢٢]

هذه هي المقاصد الثلاثة التي وعدت في بداية الخطاب بشرحها في ضوء حديث العنوان، فأحمد الله تعالى على أني قد

[٢٢] ونصُّه: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فقال: بها عليها، فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، فقالوا: يا رب! هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالوا: يا رب! فهل من خلقك أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. فقالوا: يا رب! فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالوا: يا رب! فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالوا: يا رب! فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم، تصدَّق بصدقةٍ بيمينه يخفيها من شماله».

شرحتها نوعا ما، وأريد الآن أن أختصر المباحث الطويلة لتلك المقاصد الثلاثة وأطبقها على هذا الحديث، وأبين أن جميع التفصيلات التي ذكرتها هي في الحقيقة شرحٌ لعدة جمل جامعة وبليغة في الحديث، وهي مستنبطة من تعبيراته، فقد جاء في أول الحديث ذكر العناصر الأربعة جوابا عن سؤال الملائكة، التي هي مادة العالَـــم وأصل مواليدها الثلاثة (الحيوانات، والجمادات، والنباتات)، التي خُلِقَت منها هذه الدنيا.

ثم جاء ذكر هذه العناصر الأربعة في الحديث بأسلوب بليغ، حيث ألقي فيه الضوء الكافي على مراتب كل منها في الشدة والضعف، فالتراب أضعف العناصر، ثم الحديد -الذي هو أيضا من أجزاء الأرض- أقوى منه، والنار أقوى منه، والهواء أقوى منها، واستمر هذا البيان إلى قوله: «نَعَمْ، الريح».

وبعد ما انتهى عن ذكر هذه العناصر المادية، انتقل إلى بيان أعلى المواليد الثلاثة وهو الإنسان، وذكر بقوله: «نَعَمْ، ابن آدم» أن الأشد والأقوى من جميعها هو الإنسان، وكذلك وضحتُ في السابق بذكر الأفعال التي يمارسها الإنسان في تلك العناصر، أن الإنسان هو ذلك النوع الذي تتسارع لتلبية حاجاته كلُّ العناصر، وكلُّ المواليد.

ثم انتقل الحديث الشريف من هذه الماديات إلى الروحانيات، وذكر أن ابن آدم ليس أقوى وأشد على الإطلاق، وإنما بشرط أن يكون روحانيا، ولا يبقى ماديا، أي يترك الماديات، ذكره في قوله: «تصدَّق بصدقةٍ»؛ لأن الصدقة "ترك ما سواه" أو "ترك الماديات".

ثم انتقل الحديث من الروحانية، متوجهًا إلى بيان أعلى مقامات الروح الذي هو التجرد الخاص، والبراءة عن الغوائل النفسانية، والنزاهة عن كثافة الأخلاق، ثم التحلي بلطافة الأخلاق، وذكر أن تصدق الإنسان فقط أو الانقطاع عن الماديات لا يعني شيئا، ما لم يتزود بالإخلاص، ولم يتخلَّ عن الرياء، وهذا الذي سُمِّيَ "إخفاء الصدقة"، الذي ذكر في الحديث بقوله: «يخفيها»، أيْ المتصدِّقُ المحضُ يُصبح أقوى وأشد منه المتصدقُ المخلصُ الذي لا دخل للرياء في صدقته، كأن تكون هذه الصدقة وترك الماديات حسبةً لله، ويصير هذا المتصدق يتصدق وهو روحاني، لا مادي.

ثم ذكر أن إخفاء الصدقة عن المخلوق ليس كافيا لقوتها وشدتها، ما لم يُخْفِ عن نفسه أيضا، أعني لا يشوبها عجب النفس، ولا حب الذات، ولا يعتبرها في نفسه شيئا يُذْكر، كأن المتصدق إذا تصدق ربانيا، لا نفسانيا، فيصبح أقوى وأشد من

كل من العناصر الأربعة، ومواليدها الثلاثة، وجميع الإنس، وجميع الناس المتصدقين، وجميع المتصدقين المخلصين غير المرائين، وإلى هذا المقام أشير في لفظ: «يخفيها من شماله»، أعني تكون الصدقة مخفية بحيث لا تعرف شماله ما أنفقته يمينه، ومن أنفقتْ عليه.

ثم من الظاهر أن الإنسان بهذا الشأن التام للاستغناء والترك لم يترك الدنيا فحسب بل ترك نفسه أيضا، ولما لم يفعل ذلك رياءًا للدنيا، ولا للنفس، فثبت أنه لم يفعل ذلك إلا لله سبحانه وتعالى، وكونُها لله مَنَحَ ذلك الإنسانَ المتصدقَ ضعيفَ البنيانَ قوةً سخَّر بها سائر الماديات وعناصرها ومواليدها، مما اتضح به وضوحًا تامًّا أن القوي المطلق والشديد المطلق في الحقيقة هو الله سبحانه تعالى، وأن كل قوةٍ و كلَّ شدةٍ تكمن في السعي إليه وإيجاد النسبة معه.

وقد أثبتنا في السابق أيضا مستفيدا من ترتيب الحديث أن القوة والطاقة تكون على قدر اللطافة، فثبت أيضا بدلالة الحديث أن الله الذي هو مخزن القوة والطاقة هو مخزن اللطافة اللامحدودة أيضا، وهذه اللامحدودية هي أن لا تراه الأبصار أيضا ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ولذلك ثبتت بالحديث أيضا هذه القاعدة القائلة بأن "لا قوي ولا متين إلا الله"، ثم من ينشئ المناسبة معه يصير قويا بقدر تلك المناسبة. وطريقة إنشاء المناسبة مع الله هي الابتعاد عن الماديات، والتوجه إلى الروحانيات، عن طريق التصدق، ولما كان المتصدق المخلص الخالي عن عجب النفس والرياء ينشئ مناسبة كاملة مع الله لذا هو حامل اللطافة الكاملة، وأقوى من كل إنسان في العالَـــم.

النتائج اللطيفة لمباحث الحديث

رتَّب الحديث الشريف محتوياته ترتيبا رائعا، حيث إنه ذكر أولا كل كثيف، ثم كل لطيف، ثم جعل كلَّ مذكورٍ مؤخرًا أشد وأقوى من المذكور مقدَّمًا، فثبت من هذا البيان المرتب أن معيار الشدة والقوة ليس إلا وصف اللطافة، وترتيبه الطبيعي لا يتحقق إلا بأن يكون الألطفُ من التراب الحديدَ، ومن الحديدِ النارَ، ومن النارِ الماءَ، ومن الماءِ الهواءَ، ومن الهواءِ الإنسانَ، ومن عامة الناسِ الإنسانَ تاركَ الدنيا، ومن عامة التاركين التاركَ المحضَ والزاهدَ غيرَ المرائي الذي قلبه أطهر من شواغل الدنيا، وأرفع من حب الماديات، وأنفر من الكثافات المادية، ومحور

اللطافات الروحانية، كأن لا يكون حامل اللطافة الكاملة إلا الإنسان الروحاني الرباني، الذي لا ينهمك في خدمة البدن، بل ينشغل بتكميل الروح، وتصبح الأعمال الروحانية شعارا له، بدلا من التصرفات المادية.

لطافة الروح في تديُّن الإنسان

كلنا نعلم أن تعليمَ طرقِ نيل الربانية وأساليب إقامة الشعائر الروحانية من موضوعات الدين، لا من موضوعات العلوم، وبلفظ آخر نقول: إنه لا يكون الألطفُ والأقوى إلا الإنسانَ الذي يكون متدينًا أكثر، بحيث أن يجعل الدينَ كلَّ شيء بالنسبة له، لذلك كما يستفاد من الحديث الشريف معيار القوة والشدة الذي هو اللطافة، كذلك يستفاد منه طريقة اكتساب اللطافة التي هي الدين، الذي يأتي باللطافة بواسطة ترسيخ الروحانية، وهكذا تصبح الروح مَلِكا، الذي هو منصبها الأصلي، والجسم خادما لها، الذي هو منصبه الحقيقي، والنفس كنَّاسًا يكنس بمكنسة التقوى أوساخ السيئات وزبالتها، ولا يسرق ولا ينهب، ويصبح العقل وزيرا يشير على الملك بمشورات مفيدة، ونصائح نافعة، ويكون الوحي الإلهي قانونا ودستورا له يهديه الصراط

المستقيم، وهكذا وبحكم الروح المنظَّم ينتشر عدل الروحانية في أطراف العالَـــم الأربعة، ويحبس اللصوص وقطاع الطريق الذين يبثون الفتنة، وينقضون الأمن.

ثم إذا كان البلد آمنا وقويا منظَّما بحاكمه اليقظ، ووزيره العاقل، ودستوره الواضح، فلا يتجرأ الأعداء من الخارج على الهجوم عليه، ولا يعثون فيه فسادا، ولا الخائنون والسارقون من الداخل يتجاسرون على أن ينقضوا الأمن والسلام، يقول الله سبحانه وتعالى في العدو الخارجي أي الشيطان: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَٰنٌ عَلَى الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَ عَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ﴾ [النحل:٩٩]. وقال في العدو الداخلي أي النفس الأمارة: إنها تترك العصيان وتتبع القانون، وتصبح بذلك مطمئنة راضية، يقول تعالى: ﴿يٰٓاَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِيٓ اِلٰى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٧-٢٨].

أسس الإسلام

تلخص لدينا مما سبق من المباحث أن العالَـــم منقسم على قسمين: المادية والروحانية، أو العلوم والإسلام، فأساس الإسلام والروحانية حسب إشارة الحديث على أصلين: أولهما: ترك ما سوى الله الذي عُبِّرَ عنه في الحديث بالصدقة. وثانيهما:

الإخلاص الذي عُبِّرَ عنه فيه بالإخفاء.

وحاصل الأصل الأول أن تُخْرِجَ من نفسك حبَّ جميع ما سوى الله من الدنيا، والنفس، وهوى النفس وغيرها التي تُخِلُّ بحبه تعالى. وحاصل الأصل الثاني أن لا يترك ما سوى الله إلا لإرضاء ذلك المحبوب الأوحد الذي خلق الأرض والسماء، لا لحب الذات، ولا للأنانية، ولا للعجب بالنفس، ولا للرياء.

أسس العلوم

لما كانت العلوم ضد الإسلام، تكون أصولها ضد أصوله تلقائيا، فضدُّ ترك ما سوى الله هو حب ما سوى الله، وضد الإخلاص هو النفاق.

وحاصل حب ما سوى الله أن يحب الإنسانُ كلَّ غيرِ الله وكلَّ باطلٍ، ويترك اللهَ والحقَّ، ولما تكون النفسُ أسبقَ في حب غير الله لذلك النفس تكون أولَّ وأحبَّ لديها من كل شيء، ولما كانت النفس تحب كل اللذائذ المادية لذا تكون لدى الإنسان أيضا بواسطة النفس كل اللذائذ المادية أحب، التي اسمها "الدنيا"، كأن حاصل حب ما سوى الله هو حب الدنيا وحب النفس.

وأما حاصل الأصل الثاني "النفاق" فهو أن هذه النفس

الجاهلة بسبب عدم معرفتها الحقيقة تُظْهِر أن مقصودها الأصلي هو اللذائذ المادية التي ظاهرها مزين، ومصيرها (باطنها) بَشِعٌ، ولكن لما كانت هذه اللذائذ في حد ذاتها -بسبب عدم تمتعها بأية رفعة وحسن عاقبة- لا قيمة لها عند أهل البصيرة، الذين يرون أمثال هذه النفوس الدنيئة مستحقة للوم واللعن، لذلك تسعى هذه النفوس الدنيئة لإقناع الناس بمعقولية مطلوباتها الخسيسة متستِّرةً بستار الأصول والانتظام، وتُبْرِز جميعَ العواطف النفسانية التي هي خلاف المذاق السليم في لباس الكمالات، محاولة منها لجعل مطلوباتها البراقةَ تلك، ذاتَ قيمةٍ في أنظار الناس.

فمثلا عامة اللهو واللعب والرقصات والأغاني السوقية يقدمونها بعنوان "الفنون اللطيفة"، والفسق والفجور المنظمَيْن يسمونهما الثقافة والحضارة بعد إضفاء الشرعية القانونية عليها، ويعنونون الاستعمار ونهمة الأرض بالتقدم والرقي، وإراقة الدماء بالآلات الحربية الفتاكة وهلاك الإنسانية يسمونها حرب الحق والصدق وإقامة الأمن، ويعبرون عن توفير وسائل الطرب والفسق بإعلاء شأن المجتمع ورفع قدره، فهم بذلك يعبدون النفس وهواها في الحقيقة، ولكنهم تلاعبوا بالألفاظ وسموه بعبادة الحق، وهم يطيعون النفس ومطالبها وسموها بالطاعة الصادقة.

فتخفي هذه النفوسُ الماديةُ أهواءَها النفسانية في واجهات العناوين البراقة، وتسعى لزيادة قدرها وقيمتها في قصَّات الملابس الخلابة، مع أن الحقيقة خلاف ما هي عليه.

ومما لا شك فيه أن حقيقة النفاق ليست إلا أن يكون في الباطن شيء، وفي الظاهر شيء آخر، وأن يكون الباطن وسِخًا، والظاهرُ جميلا، وينخدع به الناظر إليه.

ومظاهر الحضارة المادية الجميلة هذه، عبر عنها القرآن الكريم بالزينة، التي حقيقتها ليست أكثر من أنها في الباطن لا شيء، وفي الظاهر تلميعات سطحية تجعلها خادعة للنظر. يقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوٰتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِيْنَ وَالْقَنَاطِيْرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْاَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ؕ ذٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ۚ وَاللّٰهُ عِنْدَهٗ حُسْنُ الْمَاٰبِ﴾ [آل عمران:١٤].

فجُعِل في هذه الآية الكريمة زينةُ الدنيا عبارةً عن عبودية الشهوات، وحب المال، وأسباب المفاخرة والرياسة، التي خلاصتها الرغبة الجامحة للتكاثر المالي والجاهي، وذُكِرَ أن في النساء والذهب والأرض وغيرها من الأشياء لذةً سطحيةً عاجلةً موقتةً زائلةً؛ لأن باطنها ظلامٌ حالكٌ، ومصيرُ شغفِها كدورةٌ ومرارةٌ؛ ولو صُبِغَت بصبغات غليظة، وكُسِيَتْ بعناوينَ خلاَّبةٍ، حاصلها كلها ظاهر لا

حقيقة له، يقال له في اصطلاح الشرع "النفاق".

إذا تأملنا فيظهر أن حقيقة الأصلين للعلوم "حب ما سوى الله، والنفاق" باطلة، فبطلان النفاق واضح جدا لأن معنى الباطل هو أن في ظاهره شيئا كثيرا، وفي باطنه لا شيء، ظاهره لَمَّاع، وباطنه مظلم، ولما كانت حقيقة النفاق أيضا كذلك أيْ ظاهرُه شيءٌ وباطنُه شيءٌ آخرُ، فاتضح بطلانه.

وأما "ما سوى الله" فهو أيضا ترجمة "الباطل"؛ لأن كلَّ ما سوى الله يأخذ وجودَه من الله سبحانه وتعالى، فلا هو قائم بنفسه، ولا موجود بنفسه، لذا لا وجود حقيقةً ولا كمال في ذات "ما سوى الله"، بل يظهر به مجردُ وجودِ الحقِّ تعالى ووجود كمالاتِه، ولما لم يكن وجودٌ لما سوى الله –سواء أكانت النفس الإنسانية، أم المواليد الأخرى، أم العناصر الأربعة، أم الأجزاء الأخرى للكون–، ولكنها موجودة وجودا ظاهراً لا حقيقة له، نتج عن ذلك أن كل ما سوى الله باطل بذاته، «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[٢٣].

ولما كانت العلوم قائمة على هذين الأصلين الباطلين، أولهما

[٢٣] رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب فضائل الصحابة، باب أيام الجاهلية، ج٣، ص١٣٩٥، رقم٣٦٢٨؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الشعر، ج٤، ص١٧٦٨، رقم٢٢٥٦ بسنديهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

"ما سوى الله" وهو باطل آفاقي، وثانيهما "النفاق" وهو باطل أَنْفُسِيٌّ، تبين منه أن حقيقة العلوم المادية كلها ليست إلا البطلان وحبّ البطلان، ومع ذلك يفتخر بها علماؤها، ويتبجحون بها بحيث ترتج بها الأرض والسماء.

نعم، لو اختير الله فحسب، بدلا من "ما سوى الله" لكان حقًّا، وكذلك لو اختير الإخلاص بدلا من النفاق لكان حقا أيضا، وإقامة العلاقة مع الله بالإخلاص هو الإسلام، فتبين أن الإسلام قائم على أساس الحقِّ الذي لا أثر للباطل فيه، لذلك نحن لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن العلوم الحديثة اسمٌ لشغبٍ وباطلٍ لا أساس له، والإسلام اسمٌ لحقيقةٍ ثابتةٍ وحقٍّ، أصله ثابت ومستحكم، وكلمة الباطل لا أساس لها، وكلمة الحق ثابتة على أصلها وراسخة، يقول الله تعالى: ﴿اَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ اَصْلُهَا ثَابِتٌ وَّ فَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيْٓ اُكُلَهَا كُلَّ حِيْنٍ بِاِذْنِ رَبِّهَا ؕ وَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْاَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُوْنَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيْثَةِ ۣاجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْاَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة إبراهيم]

دفع شبهة

ولكن لا يفهم من كلامي هذا أني أمنع الناسَ عن العلوم

الحديثة بذاتها، وأمنع عن إيجاداتها وإبداعاتها، أو أفتي بحرمة تعليمها ودراستها، أو أقول: إن الاشتغال بها باطلٌ كليةً، وإنما أقصد به ما ذكرته في الخطاب بعناوين مختلفة، وهو أني أمنع عن أن تُجْعَل العلوم مقصودًا أصليًّا ومطلبًا رئيسًا، وكلٌّ هذه الجهود التي تُبذَل الآن في سبيل العلوم لو كانت قد بُذِلَت في سبيل مقصودٍ حقيقيٍّ لَمَا كان جائزا فقط، بل كان مطلوبا في هذه الأيام، وذلك المقصود الحقيقي ليس هذه الدنيا المادية؛ لأنها وسيلة فقط، ولا المنافع المادية؛ لأنها أيضا وسيلة فحسب، وإنما يكون المقصود الأصلي لمسلمٍ هو الآخرة وديانته المذهبية، التي خُلِقَ الإنسان لأجلها.

فالعلوم بدون صلتها بالدين شجرة خبيثة، لا ثبات لها ولا قرار، ولكنها إذا اتصلت بالدين خادمةً له، وذريعةً للمطلوب، فهي نافعة ومفيدة، وداخلة في الكلمة الطيبة، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ولكني أحس –بالشدة– بأن الجهود التي تُبْذَل للعلوم الآن يبدو أنها تُبْذَل لشيء مقصود بالذات، ولأجل ذلك يتهافت عليها الناس، وأنا أرى أيضًا أنه لم يُجْعَلِ الدينُ معيارًا لقبولِ العلوم وردِّها، بل استُعْمِلَتِ العلومُ في كثيرٍ من الأحيان لمخالفة

الدين، حتى قيل: إن العلوم زلزلت أسس الدين ودعائمه، كأن العلوم شيء مقصود بحيث لا يصلح الدينُ وسيلةً لها، فضلا عن أن يكون مقصودَها.

ومن الممكن جدا أنْ كانت هذه العلوم قد عَمِلَتْ في ديانات العالم القديمة عملاً تخريبيًّا، ولذلك قيل ما قيل، ولكني أؤكد لكم أن الدين الوحيد الذي تسير العلومُ مع كل صغيره وكبيره، هو دين الفطرة "الإسلام"، لو أراد أحد أن يرى تفصيلاته فليقرأ كتابي "تعليمات إسلام اور مسيحي اقوام" (أي التعليمات الإسلامية والأقوام المسيحية)، فإني وضحت فيه بالأدلة أن جميع إيجادات العلوم في الحقيقة هي الوجه المادي لمعنويات الإسلام، وقد جاءت الترقيات العلمية بإرادة الله التكوينية في هذا العصر لتفهيم الإسلام، ولجعلها أقرب إلى الفهم.

لذلك، فالإنسان الذي يستخدم العلوم وسيلةً للإسلام هو يُقَوِّي الإسلام، والذي يجعلها مقصودة بالذات هو يوهن نفسه ويضر بها، ولا يستطيع أن ينال من الإسلام شيئا.

موضع عبرة لطلبة الجامعات العصرية

لما ثبت أن العلوم بلا واسطة الدين "كلمة خبيثة" التي لا

أساس لها، والإسلام "كلمة طيبة" التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، فهذا مقام العبرة والموعظة لأبناء المسلمين الطيبين، فلا يصرفوا أوقاتهم الثمينة في معمولات العلوم بحيث تصبح مقصودةً بالذات، ولذَّاتُها الفانية والزائلة تصير أصليةً، التي هي سبب الندامة في الآخرة، ولات ساعة مندم، ولات حين مناص.

ولا يأخذ بقلوب هؤلاء الطلبة، اللمعانُ الظاهري لأولئك الأقوام الذين زادوا في لهو ولعب أهل الدنيا بمصنوعاتهم المادية اللامعة من العناصر الأربعة النار والماء والهواء والتراب؛ لأن أعمار هذه المصنوعات قصيرة جدا، وستبقى لوقت قصير.

وهذا البريق الخادع للحضارات والمدنيات القائمة على العلوم متاع قليل، وحياة الأقوام المنهمكة فيه محدودة جدا ولأيام قلائل فقط، وستأتي تلك الساعة قريبا التي تتصادم فيها الحضارات البرَّاقة مع نفسها، وتقضي على محبيها بتلك المصادمات والمقارعات، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فِي الْبِلَادِ ۝١٩٦ مَتَاعٌ قَلِيْلٌ ثُمَّ مَاْوٰىهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٩٧﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

وهذه العناصر الأربعة أيضا آخذة بالأبصار، وساحرة لها، فالنار لامعة، صاحبة صولات وجولات، ومالكة لآثار الحرارة

البعيدة. والماء فضِّيٌّ المنظر صافٍ وشفَّاف، وحاملٌ لآثار التبليل المنتشرة. والهواء في الظاهر أرقُّ شيء جسما بلطافته، وموجودٌ وسارٍ في كل مكان. والكرة الأرضية من حيث المجموع تبدو أكثر عظمة ومكانة، وأوسع شيء وأكبر إلى حد النظر. ولكن هذه العناصر الأربعة بسبب أخلاقها الجبلِّية وآثارها الطبيعية محتاجةٌ ومتخلِّفةٌ وأذلُّ شيءٍ في العالَـــم، وما استطاع بريقُها الظاهريُّ هذا محوَ دناءَتِهَا وسِفْلِها الجوهري كما أثبتنا في السابق.

ومِثلُه بالضبط تمامًا حالُ الأقوام أو المجتمعات أو الأفراد التي غلبت عليها هذه الأخلاق المادية، بحيث أصبحت شغلَها الشاغلَ ليلَ نهارَ، هي ولو تبدو في الظاهر لامعةً مثل النار، وشفَّافةً مثل شفَّافية الماء، ومنتشرةً انتشارَ الهواء، وعظيمةً مثل عظمة الأرض، ولكنها بسبب أخلاقها المادية الراسخة فيها بسبب أشغالها المادية، لا تستطيع أن تُنقِذ نفسَها من الذلة والهوان اللذين سيأتيانها في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن المادة التي لم يُكْتَب لها أيُّ عزٍّ، ولا أية كرامةٌ منذ خلق الفطرة، تنهدم العمارات المصنوعة منها بأسرع وقت، مهما كانت قوية شامخة ناطحة السماء.

خاتمة الكلام وخلاصة النصيحة

فيا إخوة الإيمان! لا تنظروا إلى الشأن والوقار الظاهريين للأقوام المدعوة بالأقوام المتحضرة اليوم؛ لأن مصيرها السيئ المهلك سيأتي قريبا، عسى أن يعمَّكم ذلك العذابُ والهلاكُ أيضا بتقليدكم ومحاكاتكم لتلك الأقوام في كل شيء؛ لأن قوة تلك الأقوام ليست ذاتية جوهرية، وإنما هي عرضية بضعفكم؛ إذ ترك الروحانيون الميدان فاحتله الماديون، وإلا ففي عهد الأسلاف عندما كان الروحانيون كثيرين، وكانت الشعبية الروحانية قائمة، فيعلم العالَـــم أنهم كيف كسروا الكبرياء المادية، وكيف انتصروا على الرفعة المادية.

وعليه فإنكم إذا عرفتم حقيقتكم فمن الممكن أن تسترجعوا عظمتكم الذاهبة، وتستعيدوا مجدكم الغابر، وإلا فلا تصمد معارضُ هذه الصور لمدة أطول أمام الحقيقة.

لقد شرحتُ ذلك الحديث إلى حد معقول، وقدَّمتُ أمامكم مستنبطا منه حسب مستطاعي: عوارضَ العلوم والإسلام أي حقيقتهما، وغايتهما، وتعيين المقاصد والوسائل منهما، وأخلاقهما وخواصهما، ومصيرهما، ومقتضاهما، وقد

برئتُ من ذمة إلقاء الخطاب تحت ذلك العنوان، وأختم هذا الخطاب بالدعاء للتوفيق والاستقامة، والحمد لله أولا وآخرا.

العبد الأحقر/ محمد طيب غفر له ولوالديه

مدير دارالعلوم ديوبند



فهرس المصادر والمراجع

ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي، **ذم الدنيا**، تحقيق وتعليق: مجدي السيد إبراهيم، (القاهرة: مكتبة القرآن).

ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي، **الزهد**، (بيروت: دار ابن كثير).

ابن الأعرابي، أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد البصري، **المعجم**، تحقيق: أحمد ميرين سياد البلوشي، (الرياض: مكتبة الكوثر، وبيروت: دار الكتب العلمية).

ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: علي محمد البجاوي، (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ).

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، **تاريخ دمشق**، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٩٥م).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: محمود حسن، (بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، **السنن**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤٠٥هـ).

أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، **المسند**، (القاهرة: مؤسسة قرطبة).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، **الصحيح**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (اليمامة – بيروت: دار ابن كثير، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، **السنن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

الحاكم، محمد بن عبدالله أبو عبدالله النيسابوري، **المستدرك**

على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

محمد سفيان القاسمي، **لمحة موجزة عن حياة الشيخ محمد سالم القاسمي**، (ديوبند: مجمع حجة الإسلام، بالجامعة الإسلامية دار العلوم وقف).

عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي، **المنتخب من المسند**، تحقيق: صبحي البدري السامرائي ومحمود محمد خليل الصعيدي، (القاهرة: مكتبة السنة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

محمد بن نصر الحجاج أبو عبد الله المروزي، **تعظيم قدر الصلاة**، تحقيق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، (المدينة المنورة: مكتبة الدار، ط١، ١٤٠٦هـ).

مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، **الصحيح**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي).

المنذري، أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي، **الترغيب والترهيب**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (بيروت: دارالكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ).

الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (بيروت: دار الفكر، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).



للبحث والتحقيق

إن الجهود المخلصة العظيمة التي بذلها علماء الجامعة في مختلف المجالات الإسلامية اتسم معظمها بصبغة فردية، مع أن بعض مآثرهم العلمية -ولو صدرت عن الواحد منهم- مما ينوء بالمجامع والأكاديميات، وذلك بالنظر إلى ضخامتها وغزارة علمهاوكثرة نفعها.

وفي آخر الأيام اشتد الشعور بالحاجة إلى الجهود الجماعية الموحدة؛ فإن الجهود الجماعية أسرع تحقيقاً للغاية المنشودة وأقل خطأً وأكثر نفعاً، ونفس الشعور الذي يتزايد يوماً فيوماً في نفوس القائمين على الجامعة الإسلامية دارالعلوم وقف ديوبند، حدا بهم إلى تأسيس مجمع يضم نخبة من العلماء والباحثين، ويتناول البحث في القضايا العلمية المستجدة، ويفي بما تحتاجه الأمة الإسلامية من الناحية العلمية من دقة الوعي وصحة العلم وسلامة الإدراك.

فأُسِّسَ في الجامعة في العام الماضي مجمع باسم "مجمع حجة الإسلام"، وناشدت الجامعة عدداً من الباحثين للانضمام إليه، فانضم إليه- بحمد الله- كوكبة مختارة من الباحثين المعروفين في مجالات البحث والتحقيق.

إن نشأة المجمع كانت أمنية عزيزة، تراود نفس كل عالم طموح، يود للعلوم الإسلامية أن تطبَّق وتطوَّر، وللأمة الإسلامية أن تسود وتقود، فانهالت رسائل وخطابات العلماء على مدير المجمع، يهنئونه بهذا الإقدام العلمي المبارك، الذي لاتُجحد قيمته في أوساط العلم والأدب.

Ḥujjat al-Islām Academy





